

الجدور التراثية للنقد الأدبي

إعداد

أ.د / محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

(طه: ٢٥-٢٨)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد ، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبع طريقتهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن قضية الثقافة والفنون قضية تراكمية أشبه ما تكون بحال الإنسان والنبات ، فكلّ منهما ينمو نموّاً قد لا يُرى ولا يُلاحظ بالعين المجردة ، لكنه يظلّ مستمرّاً ومطرّداً حتى يستوي الطفل رجلاً ، وينتج النبات ثمراً يانعاً . وكما لا يستطيع الإنسان أن ينكر مراحل طفولته ، وأنها أحد أهم مراحل حياته التي ينعكس أثرها على كل ما يليها من مراحل الحياة ، فإن أحداً لا يستطيع أن يُنكر أثر الجذور والمنطلقات المؤسّسة لكل علم ، ولا سيما في مجال العلوم والفنون والآداب .

ويؤرخ هذا الكتاب للجذور التراثية للنقد الأدبي العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي .

وقد تناولت في هذه الدراسة مسيرة النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي ، محاولاً إبراز أهم الملامح والرؤى النقدية في كل عصر من هذه العصور ، بمقاييس هذه العصور لا بمقاييس غيرها .

وتأتي هذه الدراسة في تمهيد حول مفهوم النقد الأدبي وعدة الناقد ، وخمسة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول: الجذور التراثية للنقد في العصر الجاهلي :

وفيه تناولت مظاهر النقد الأدبي وطبيعته في هذا العصر، فتحدثت عن قضايا: التنقيح والتثقيف ، والمفاضلة بين الشعراء ، والاستحسان والاستهجان ، والاختيار أو الانتخاب ، مبيِّناً أن النقد في هذا العصر كان - في جملته - نقداً فطرياً ذاتياً يعتمد على الذوق أكثر من اعتماده على أي شيءٍ آخر.

الفصل الثاني: الجذور التراثية للنقد في عصر صدر الإسلام:

وفي هذا الفصل ذكرت ما يؤكد أن النقد الأدبي قد خطا خطوة إلى الأمام ، حيث تضمّنت بعض أحكامه النقدية شيئاً من التفصيل أو التعليل ، كما أن الإسلام قد وجّه الأدباء والنقاد وجهة دينية وحُلُقية ، ودعاهم إلى مراعاة السهولة والوضوح ، والبعد عن التكلف والحوشي وسجع الكهان ؛ فانعكس ذلك على رؤاهم ونظراتهم النقدية .

الفصل الثالث: الجذور التراثية للنقد في العصر الأموي:

وفيه تحدثت عن عوامل ازدهار النقد وأبرز اتجاهاته اللغوية والأدبية، مؤكداً أن هذا العصر قد شهد حركة نقدية قوية مهّدت لظهور النقد المنهجي في العصر العباسي .

الفصل الرابع: الجذور التراثية للنقد في العصر العباسي:

وفيه تناولت عوامل ازدهار الحركة النقدية في هذا العصر، ثم تحدثت عن ظهور النقد المنهجي، وعن كتابين من أبرز كتبه في هذا العصر، هما: "الموازنة" للآمدي، و"الوساطة" للجرجاني.

الفصل الخامس: من قضايا النقد الأدبي القديم:

وفي هذا الفصل عرضت لثلاث قضايا من أهم قضايا النقد القديم، وهي: اللفظ والمعنى، وخطأ المعاني وصوابها في ضوء كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، والاتجاه البلاغي في النقد الأدبي القديم.

وقد حاولت إخراج هذه الدراسة في ثوب عربي خالص، فنأيت بها عن الحشو والتعقيد، والفلسفات والمصطلحات الغربية الحديثة؛ إيماناً مني بأن النقد العربي القديم ينبغي أن يظل عربياً خالصاً، وألاً نحاكمه أو نحاكم نقادنا القدامى في ضوء هذه الفلسفات والمصطلحات ونحن نعلم ونقدّر أن لكل عصر طبيعته ولكل بيئة خصائصها.

وإني لأرجو أن أكون قد وفّقت فيما قصدت، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د / محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

تمهيد

مفهوم النقد الأدبي وعدة الناقد

أولاً: مفهوم النقد الأدبي :

١ - في اللغة :

يطلق النقد - في اللغة - على عدة معان ، أهمها :

أ- الاختبار والتمييز:

يقال : نقد الشيء نقداً: أي نقره ليختبره، أو ليميز جيده من رديئه ،

ونقد الدراهم والدنانير وغيرها نقداً وتنقاداً: ميز جيدها من رديئها^(١).

والنقد والتنقاد: تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها ، ومنه قول

الشاعر^(٢):

تنفي يداها الحصا في كل هاجرة نفي الدنانير تنقاد الصياريف

ب- العيب والانتقاص:

يقال: فلان ينقد الناس : أي يعيهم ويغتابهم ، وفي حديث أبي

الدرداء: "وَرَقًا كَانَ النَّاسُ لَا شَوْكَ فِيهِ ، وَهُمْ الْيَوْمَ شَوْكٌ لَا وَرَقَ فِيهِ ، إِنَّ

تَرَكْتَهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا ، وَإِنْ نَقَدْتَهُمْ نَقَدُوا"^(٣)، ومعناه : إن عبتهم واعتبتهم

(١) المعجم الوسيط: مادة "نقد".

(٢) لسان العرب: مادة "نقد"، ويروى نفي الدراهم، وفي البيت تشبيه أثر حركة الناقة في الحصا

بحركة الصيارفة في نقد الدراهم والدنانير، وإخراج الزائف منها.

(٣) موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني ، تعليق وتحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ، المكتبة

العلمية، رقم ٩٧٩.

قابلوك بمثل صنيعك^(١).

ويقال: " انتقد فلان الشعر على قائله"، والتعديّة بحرف الجر هنا تشعر بالعيب، والعيب لون من ألوان الحكم، ومن النقاد من يقصر عمله على هذا المعنى، والدوافع إلى هذا متعددة: فمن النقاد من تملي عليه طبيعته أن ينكأ الجراح، ومنهم من يكون قاصراً عن إدراك المحاسن والمزايا وأوجه الصواب، ومنهم من تصيبه الأعمال الأدبية غير السوية بغصّة نقدية، ومنهم من يرغب في إظهار الأخطاء والمساوي حتى تُجَنَّب، ومنهم من يجاوز المحاسن لكثرتها إلى إبراز وجوه المخالفة في الرأي والاتجاه، وهذه - مهما كثرت في أي عمل يستحق نسبته إلى الأدب - قليلة إلى جانب ما يستحق من التقريظ والمديح^(٢).

على أن المعنى اللغوي الأول - الاختبار والتمييز - هو أنسب المعاني وأليقها بالمراد من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية، وفي اصطلاح أكثر المتقدمين من ناحية أخرى؛ فإن فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم^(٣).

(١) انظر اللسان: مادة "نقد".

(٢) اتجاهات النقد الأدبي العربي، أ.د/ محمد السعدي فرهود، ص ١١، ١٢، دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٣) انظر: أصول النقد الأدبي، للأستاذ/ أحمد الشايب، ص ١١٥، طبعة النهضة المصرية ١٩٧٣م.

٢- في الاصطلاح:

هو دراسة الأعمال الأدبية وتفسيرها وتحليلها ، ثم الحكم عليها
ببيان قيمتها ودرجتها^(١).

أو هو: تمييز الأدب ونظرة لمعرفة جيده ورديئه ، وإخراج الزيف منه^(٢).
وهذا التمييز يقتضي أمرين^(٣):

أ- تحليل الأدب ، أي تفسيره وكشف حيويته.

ب- تقويمه ووضعه في المنزلة الأدبية التي يستحقها ، والحكم عليه
بالجودة أو الرداءة .

ثانياً: عدة الناقد وما يشترط فيه:

يشترط الكتاب فيمن يتصدى لأمر النقد شروطاً كثيرة ، لكنها ترجع في
جملتها إلى أمرين:

- الخبرة والدربة.

- طول المدارس وكثرة التحصيل.

أولاً: الخبرة والدربة:

يقول القاضي الجرجاني : لكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها

ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها^(٤).

(١) انظر: أصول النقد الأدبي ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ١٠ ، ١١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٤) الوساطة للقاضي الجرجاني ، ص ١٠٠ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد

البحاوي ، ط: بيروت ، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

والشعر صناعة يعرفها أهل العلم به ، الذين كَوَّنوا بخبرتهم ، وطول ممارستهم إياه، وكثرة مدارستهم له ذوقاً أدبياً يعطيهم القدرة على تذوقه ونقده^(١)، وهذا ما قرره ابن سلام بقوله: " للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات، فمنها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة أو وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة^(٢) بالدينار والدرهم لا تعرف جودتها بلون، ولا مس، ولا طراز، ولا جس، ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة.. " ^(٣) ومضى ابن سلام يضرب الأمثلة بالنخيل والرقيق والقيان ، ويرد الحُكم في ذلك كله إلى أهل الخبرة والعلم به.

وجاء الأمدى فأكد ما قرره ابن سلام ، وزاده وضوحاً وتفصيلاً بقوله: ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمان من كل عيب ، موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدربة الطويلة.

(١) انظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ص ١٥ ، دار الطباعة المحمدية ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٢) الجهبذة : الخبرة.

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/٥ ، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني ، جدة ، والعمدة لابن رشيقي ١/١١٨ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.

وكذلك الجاريتان البارعتان في الجمال ، المتقاربتان في الوصف ،
السليمتان من كل عيب - قد يفرق بينهما العالم بأمر الرقيق ، حتى يجعل
بينهما في الثمن فضلاً كبيراً ، فإذا قيل له: من أين فضّلت أنت هذه الجارية
على أختها؟ ومن أين فضّلت هذا الفرس على صاحبه؟ لم يقدر على عبارة
توضح الفرق بينهما ، وإنما يعرفه كل واحد منهما بطبعه ، وكثرة دربته ،
وطول ملابسته.

وكذلك الشعر، قد يتقارب البيتان الجيدان النادران ، فيعلم أهل
العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحداً ، أو أيهما أجود في
معناه إن كان معناه مختلفاً.

قال إسحاق الموصلي: سألتني محمد الأمين عن شعرين متقاربين،
وقال: اختر أحدهما، فاخترت ، فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما
متقاربان؟ فقلت: لو تفاوتتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ، وفضلت هذا
بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان.

وسبيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض به ، وطول
الملابسة له ، هو أن يُقضى له بالعلم بالشعر ، والمعرفة بأغراضه ، وإن يُسلم
له الحكم فيه ، ويقبل منه ما يقوله ، ويعمل على ما يمثله ، ولا ينازع في شيء
من ذلك ، إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا

يخاصمهم فيها ، ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظيراً في الخبرة وطول
الدربة والملاسة^(١).

ثانياً: طول المدارس وكثرة التحصيل:

يطلب من الناقد أن يكون أديباً وعالماً بالأدب، ويطلب منه أن يكون
أديباً؛ لأن نقده قد يلزمه في بعض الأحيان أن يلبس ثوب الأديب ليعرف
مقدار ما عاناه الأديب في سبيل هذا النص الذي يزنه له ، أو يعطيه قيمته من
الحسن أو القبح ، وليرى على ضوء ذلك كله إن كان في الإمكان الزيادة على
جهده الذي بذله أم لا. ويطلب منه أن يكون عالماً بالأدب لا أديباً وكفى؛
لأن علمه الذي جمعه يجعل له بصراً بالحكم ، واعتدالاً في الرأي ، وإنصافاً في
القضية^(٢).

فإن لم يستطع الناقد أن يكون أديباً فعليه – على أقل تقدير – أن يُلمَّ
إلماماً جيداً بأدوات صناعته والتي ذكر ابن طباطبا منها:

"التوسع في علم اللغة ، والبراعة في فهم الإعراب ، والرواية لفنون
الآداب ، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ، ومناقبتهم ومثالبهم ، والوقوف
على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن

(١) الموازنة للآمدي ١/٤١٢ ، ٤١٤ ، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف، ط: الرابعة، ١٩٩٢م.

(٢) في محيط النقد الأدبي أ.د/ إبراهيم علي أبو الخشب ، ص ٤٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

قالته العرب فيه... " (١).

وأيًا ما كان الأمر فلا بد للناقد من الأمور الآتية (٢):

١ - أن يكون محيطاً إحاطة تامة بالعلوم اللسانية من النحو والصرف والعروض والبلاغة.

٢ - أن يكون له إلمام واسع، واطلاع كبير، وصلة وثيقة بمعاجم اللغة ليعرف دلالة الألفاظ على المعاني بالحقيقة أو المجاز، وحوشيتها، أو كثرة استعمالها، ونحو ذلك.

٣ - أن يكون على إحاطة تامة بتاريخ الأدب، فيتناول المراحل التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي مر بها الأدب؛ لأنه يتأثر بها، ويسير عليها، وتظهر ملامحها فيه، فإنه لا بد للناقد من الإحاطة بها، ليربط بينها وبين النص أو الحكم الذي يصدره عن الكاتب أو الشاعر، وكذلك ما يتصل بحياة الأديب العامة والخاصة من النشأة، والثقافة، وحالته الاقتصادية والاجتماعية، ونحو ذلك مما يكون له أثر كبير في توجهات الأديب ونتاجه الأدبي.

٤ - أن يكون على صلة وثيقة بالدراسات النقدية القديمة والحديثة أو العصرية، مستفيداً من العلوم الأخرى - كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الجمال - ما يخدم النقد الأدبي ولا يحيد به عن مساره.

(١) عيار الشعر لابن طباطبا، ص ١٨، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المنع، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٢) انظر: في محيط النقد الأدبي، ص ٥٢، ٥٣، وراجع: ص ٤٧، ٤٨.

الذوق الأدبي:

والذوق الأدبي الذي نريده إنما هو الذوق المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبح^(١).

وأصحاب الذوق السليم قليلون، وهم مضطرون دائماً إلى حفظ أذواقهم من الآفات التي تفسدها ، بل إنهم مطالبون بصقل هذا الذوق وتهذيبه بالمدارسة ودوام التحصيل ، فليس من شك أن الدرس يهذب الذوق وينميه، ويسمو به إلى درجة عالية ، فالأديب ذو الفطرة الذواقة يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون ، فتراه بعد قليل مصقول الذوق ، ثاقب الذهن، يضع يده على العبارة البليغة ، والخيال الجميل ، ويدرك صدق العبارة ، وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب ، إذا سألته عن سر البلاغة أو العي استطاع التعليل وأصاب وجه الصواب^(٢).

يقول الآمدي: " وأنص على الجيد وأفضله ، وعلى الرديء وأرذله ، وأذكر من علل الجميع ما ينتهي إليه التخليص ، وتحيط به العبارة ، ويبقى ما لا يمكن إخراجه إلى البيان ، ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهو علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابس ، وبهذا يفضل أهل

(١) الوساطة للجرجاني ، ص ٣٥.

(٢) انظر: أصول النقد الأدبي للأستاذ / أحمد الشايب ، ص ١٢١ ، ١٣٢.

الحذاقة^(١) بكل علم وصناعة مَن سواهم ممن نقصت تجربته، وقلت دربته،
بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الصناعة وامتزاج بها، وإلا فلا^(٢).

* * *

(١) الحذاقة (بفتح الحاء وكسرهما): المهارة.

(٢) الموازنة للآمدي ١ / ٤١١.

الفصل الأول

الجزور التراثية للنقد في العصر الجاهلي

الجذور التراثية للنقد في العصر الجاهلي

يرى بعض الكتاب أن تاريخ الشعر الجاهلي يرجع إلى نحو خمسين ومائة أو مائتي عام قبل ظهور الإسلام^(١)، وأن الشعر بدأ في صورة أبيات أو مقطوعات يرسلها العربي بين يدي حاجته ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف^(٢).

ولكن أحدًا من هؤلاء الكتاب لم يستطع أن يحدد سنة ولادته، ولا أول شعر أو أول شاعر؛ وذلك لأن الشعر واحد من الفنون التي خضعت لنظرية النشوء والارتقاء في حقبة لم يكن للتدوين أو المنهج العلمي الذي يعنى بتاريخ الآداب والفنون فيها مكان ولا وجود، ولم يحفظ لنا الرواة المحاولات أو الإرهاصات التي سبقت نضوج هذا الفن، وإن كانوا قد نقلوا إلينا بعض القصائد المضطربة الوزن والتي تدل على أن الشعر كان لا يزال في طوره الأول.

وما ينطبق في ذلك على الشعر ينطبق - أيضًا - على النقد؛ إذ لا يستطيع أحد أن يحدد أول ناقد أو أول منقود، فقد يظهر مع تتابع البحث والعثور على بعض المصادر التي لم تصل إلينا ما يجعل مثل هذه الأحكام مجرد حدث أو تخمين.

(١) انظر: الحيوان للجاحظ ١ / ٧٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٢، ١٤٢٤ هـ.

(٢) انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ / ٢٦.

لكن الرواة قد نقلوا إلينا ما يؤكد أن النقد قد سار مع الشعر جنباً إلى جنب فما دام هناك قائل يقول فإن هناك - بالطبع - مستمعاً يسمع وناقداً ينقد، وفيما يلي عرض لأهم مظاهر النقد في العصر الجاهلي ، يتبعه بيان بطبيعة النقد ومنهجه في هذا العصر.

مظاهر النقد في العصر الجاهلي:

وتتمثل في:

(أ) التنقيح والتثقيف.

(ب) المفاضلة بين الشعراء.

(ج) الاستحسان والاستهجان.

(د) الاختيار أو الانتخاب.

أولاً: التنقيح والتثقيف:

لم يكن شعراء الجاهلية وخطباؤها يقولون أو ينظمون كل ما يخطر ببالهم حيثما اتفق دون نظر أو تفكير؛ بل كانوا يعيدون النظر مراراً ومرات في معانيهم وألفاظهم وأساليبهم، يهذبونها ويبدلون في انتقائها جهداً كبيراً حتى تخرج في صورة أدعى للقبول وأولى بالتقديم والتقدير، إنما كانوا كما قال الجاحظ: إذا احتاجوا إلى الرأي في معازم التدبير ومهمات الأمور ميثوه^(١) في صدورهم، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثفاف وأدخل الكير، وقام على

(١) ماث الشيء: مرسه وخلطه وأذابه (لسان العرب: مادة "ميث").

الخلاص^(١)، أبرزوه محكمًا منقحًا، ومصفى من الأدناس مهذبًا ، وكانوا يستعيذون بالله من الرأي الدبري والجواب الدبري: أي الذي يكون من غير روية^(٢)، ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا^(٣) وزمنًا طويلًا يردد فيها نظره ويحيل فيها^(٤) عقله، ويقلب فيه رأيه، اتهامًا لعقله، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره إشفاقًا على أدبه ، وإحرازًا لما خوله الله تعالى من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات ليصير قائلها فحلًا خنذيديًا^(٥) وشاعرًا مقلقًا^(٦).

وروي أن زهيرًا كان يسمي كبار قصائده الحوليات؛ ولذلك قال الخطيئة "خير الشعر الحولي المحكك"^(٧)، وهو يريد شعر أستاذه زهير وشعره هو.

(١) الخلاص: الزيد إذا خلص من الثفل، والمراد أن الرأي استوى ونضج.

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣ ، ١٤ ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

(٣) كريتا: تأمًا كاملًا.

(٤) يحيل عقله: يعمله.

(٥) خنذيديًا: تأمًا، قال الجاحظ: والشعراء عندهم أربع طبقات ، فحل خنذيدي، ودونه الشاعر المقلق ،

ثم الشاعر، ثم الشويعر.

(٦) البيان والتبيين ٢ / ٦ .

(٧) المرجع السابق ٢ / ١٣ .

وكان الأصمعي يقول: زهير والنابعة من عبيد الشعر: يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما.

ومن أصحابهما في التنقيح والتثقيف والتحكيك طفيل الغنوي، وقد قيل: إن زهيراً روى له، ومنهم الخطيئة، والنمر بن توبل، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس^(١)، ومنهم كعب بن زهير وغيره.

وأستاذ هذه المدرسة هو أوس بن حجر التميمي، وقد تميز - كما يقول الدكتور طه حسين^(٢) - بميزتين: إحداهما أن خياله كان مادياً شديداً التأثير بالحس، والثانية أنه كان فناناً يتخذ الشعر حرفة وصناعة وفناً يدرس ويتعلم، وينشئه صاحبه إنشاءً، ويفكر فيه تفكيراً، ويقضي في إنشائه والتفكير فيه الوقت غير القصير.

وأنت ترى أن الميزة الأولى فطرية لم ينشئها أوس، ولكنه نهاها وتعهدا وأكثر الاعتماد عليها، وأما الميزة الأخرى فإرادية تعهدا الشاهد، وقصد إليها، واتخذها قاعدة أساسية لفنّه الشعري، وهي مقاومة الطبع وعدم الاندفاع في قوله الشعر مع السجعية التي ترسل إرسالا فتفيض بالشعر كما يفيض الينبوع بالماء.

(١) العمدة / ١ / ١٢٣ .

(٢) في الأدب الجاهلي د/ طه حسين، ص ٢٧١، ٢٧٢، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط: ٣، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م.

وهذه المقاومة التي حملت أوسًا على أن يعمل شعره ويتكلفه هي التي نلمسها ظاهرة عند زهير وكعب والحطيئة ، وهي التي لمسها وأحسها الرواة عند هؤلاء الشعراء فوصفوهم بما وصفوهم به من الأناة والروية في قول الشعر .

وروى أن الحطيئة قال لكعب بن زهير: قد علمتم روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم فلو قلت شعرًا تذكرك فيه نفسك، ثم تذكرني بعدك فإن الناس أروى لأشعاركم، فقال كعب^(١):

ومن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوز جرول^(٢)
يقول فلا يعيا بشيء يقوله ومن قائلها من يسيء ويعمل
يقومها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل
كفيتك لا تلقى من الناس شاعرًا تنخل منها مثل ما أتنخل
وإذا كان الشاعر لا يخرج أشعاره إلا بعد الجهد والمعاناة فمن المؤكد أنه كان يعيد النظر مرارًا ومرات؛ لأنه يعلم أن كلامه سيقاس بمقياس دقيق، هذا المقياس يدعي الشاعر لنفسه - وهو يحوك شعره - أنه أعلم الناس به،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ٨٣، وانظر ص ٨٥، تقديم الشيخ حسن تميم، مراجعة: محمد عبد المنعم العريان ط. دار إحياء العلوم، بيروت.

(٢) فوز: هلك، وجرول: اسم الحطيئة، وهو جرول بن أوس بن مالك بن جؤية من قيس عيلان، وهو من رواة زهير وتلاميذه، لكنه كان رقيق الدين، سيء الخلق، بذيء اللسان، هجاء مقذعًا، (انظر في أخباره طبقات فحول الشعراء ١/ ١٢، والشعر والشعراء، ص ٢٠٣، والأغاني ٢/ ٤٠، مطبعة التقدم بمصر).

وأولاهم بأن يقيس كلامه قبل أن يخرجهم عليهم، حتى يبرأ كلامه من الاعتراض ويسلم من كل عيب^(١)، وما أرى ذلك إلا لونا من ألوان النقد وضرباً من ضروبه.

على أي أنبه على أمرين:

أحدهما: أنه لا بد من التفرقة بين درجتين من التثقيف، هما: الصنعة المقبولة والمطلوبة في الفن، والصنعة التي تدخل في باب التكلف المقيت والتزويق غير المستساغ^(٢).

ومن الأولى تأتي حوليات زهير التي كان "يكرر نظره فيها خوفاً من التعقيب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رصد نشاطه فتباطأ عمله لذلك، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام ببعضه ببعض حتى عدوا من فضل صنعة الخطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض^(٣).

(١) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، د/ فوزي السيد عبد ربه، ص ٥٣، دار المعارف، ١٩٨٣م.

(٢) انظر: معالم على طريق النقد القديم، د/ رجاء عبد المنعم جبر، ص ٥٢، مكتبة الشباب بالقاهرة.

(٣) العمدة ١/ ١٢٩.

الأمر الآخر: أن شعراء العرب لم يكونوا جميعاً على شاكلة زهير وتلاميذه، بل كان هناك اتجاه مقابل يتمثل في مدرسة المطبوعين الذين يقولون الشعر عن بديهة وسرعة خاطر ، وقيل: إنها سمي الأعشى صناجة العرب ؛ لقوة طبعه وحلية شعره ، يخيل إليك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك^(١)، وعن هذا الاتجاه يعبر مزرد أخو الشماخ في رده على كعب بن زهير، فيقول^(٢):

فلست كحسان الحسام بن ثابت ولست كشماخ ولا كالمخبل
ثم يقول الكميت^(٣):

فدونك مقربة لا تسأ ط كرهًا بسوط ولا تركل
مهذبة لا كقولي الهذا ء ممن يسيء ومن يعمل
وما ضرها أن كعبًا ثوى وفؤز من بعده جرول

ثانيًا: المفاضلة بين الشعراء:

تكاد المصادر الأدبية تجمع على أن النابغة الذبياني كان في الجاهلية يجلس في سوق عكاظ للحكم بين الشعراء ، تضرب له قبة من آدم ، ويأتيه الشعراء ينشدونه أشعارهم فيحكم بينهم ، ومن ذلك:

(١) انظر: العمدة ١ / ١٣٠ .

(٢) الشعر والشعراء ، ص ٨٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

١ - ما روي من أن الأعشى دخل على النابغة فأنشده ، ثم أنشده
حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ..

ثم الخنساء قولها:

وإن صخرًا لتأنم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لنحار
فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفًا لقلت إنك أشعر الجن
والإنس ، فقال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال النابغة: يا ابن
أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
فخنس حسان لقوله ^(١).

وهذه الرواية تسائر منطق النقد في العصر الجاهلي، ولا حرج في قبولها
لأنها تعني أن النابغة واجه تمرد حسان عليه بأنه لا يحسن أن يقول مثل قول
النابغة " فإنك كالليل " ^(٢).

فقد أراد النابغة أن يلفت نظر حسان إلى فن عرف النابغة بأنه أستاذه ،
وهو فن الاعتذار الذي أتى فيه بمعان لم يسبق إليها ، فعرفت به وعرف بها ، من
نحو قوله:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

(١) الأغاني ٩/١٥٦.

(٢) انظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ١٣٨.

وقوله:

فلا تركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

وقوله:

فلو كفي اليمين بغتك خوئاً لأفردت اليمين من الشمال^(١)

حتى قيل: إن أشعر الناس: امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب،
والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب^(٢)، ولا شك أن حسان قد فطن لما
أرادته النابغة فعرف قدره وخنس كما تقول الرواية.

على أن هناك رواية أخرى تذكر أن حسان جاء إلى النابغة وعنده
الأعشى وقد أنشده شعره، وأنشدته الخنساء قولها:

قذى بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فلما انتهت إلى قولها:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال النابغة: لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الناس،
أنت - والله - أشعر من كل أنثى، قالت: والله ومن كل ذكر، فقال حسان:
أنا - والله - أشعر منك ومنها، قال النابغة: حيث تقول ماذا؟
قال: حيث أقول:

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

(١) انظر: الشعر والشعراء، ص ١٥٨، ١٧٠، والعمدة ٢/ ١٧٨.

(٢) العمدة ١/ ٩٥.

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما
فقال النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قلت عدد جفانك، وفخرت بمن
ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(١).

وأرى أن هذا النقد - أيضاً - يمكن أن يكون مقبولاً عند هذا الحد،
فليس بمستغرب أن يعرف رجل كالنابغة - جلس للحكم بين الشعراء -
ما يدل على القلة وما يدل على الكثرة ، وأن الفخر بالأصول مقدم على
الفخر بالفروع ، بل المستغرب ألا يعرف النابغة ذلك، فهم وإن كانوا لا
يعرفون الأسماء الاصطلاحية لجموع القلة والكثرة ونحو ذلك فإنهم - بلا
شك - كانوا يفرقون بين ما يدل على القلة وما يدل على الكثرة في لغتهم؛
فالعربي أعلم بلغته ، وأقدر على التصرف فيها من غير حاجة إلى معرفة تلك
المصطلحات، فالعربية لغته امتزجت بروحه ودمه، من غير أن يعلمه الخليل
وسيبيويه ، وأضرابها ، وإن مثل هذين العالمين وغيرهما إنما أخذوا ما يعلمه
العربي فيما يتصل بلغته ليعلموا به غير العرب أو ليعلموا العرب الذين
فسدت لغتهم بمخالطة غيرهم^(٢).

وأما ما أضيف إلى هذا النقد من تفصيلات علمية فيبدو أنه من صنيع
المتأخرين أرادوا أن يفسروا به نقد النابغة ، غير أن بعضهم لم يفرق بين أصل

(١) الأغاني ٦ / ١٨٧، ١٨٨.

(٢) انظر: دراسات في النقد الأدبي ، د/ بدوي طبانة ، ص ٦٥ ، دار الثقافة ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م،

والمقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٦٠.

الرواية وما أضيف إليها^(١)، ومنهم من فرق الأمرين ، ومن ذلك ما رواه صاحب الموشح من تعليق الصولي على نقد النابغة بقوله: " قال الصولي: إن هذا النقد الجليل الذي يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره ، قال له: أقللت أسياfk ؛ لأنه قال: وأسياف جمع لأدنى العدد ، والكثير سيوف . والجففات لأدنى العدد ، والكثير جفان ، وقال: فخرت بمن ولدت ؛ لأنه قال: ولدنا بني العنقاء وابني محرق ، فترك الفخر بأبائه وفخر بمن ولد نساؤه " (٢) .

فالمرزباني - هنا - قد فرق بين أصل الرواية وتعليق الصولي عليها، أو تفسيره لها.

٢- ما روي أن علقمة الفحل كان ينازع امرأ القيس الشعر، وكان صديقاً له، فقال أحدهما لصاحبه: أئنا أشعر؟ فقال هذا: أنا، وقال هذا: أنا، فتلاحيا، فقال امرؤ القيس: انعتُ ناقتك وفرسك، وأنعتُ ناقتي وفرسي، قال علقمة: فأفعل، والحكم بيني وبينك هذه المرأة من ورائك - يعني أم جندب زوج امرئ القيس^(٣) - فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها:

خليليُّ مُرَّابِي على أم جندب
لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

(١) انظر: الأغاني، ٨ / ١٨٨ .

(٢) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، ص ٧٨، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة دار الفكر، سنة ١٩٦٥م.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٦ .

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

ثم أنشدها جميعاً، فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك، قال:

وكيف ذاك؟ قالت: لأنك قلت:

فللسوط أهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقتك، وقال علقمة:

فأدر كهن ثانياً من عنانه يمر كمر الراح المتحلب

فأدرك طريده وهو ثانٍ من عنان فرسه لم يضربه بسوط ولا مراه

بساق ولا زجره.

فقال امرؤ القيس: ما هو بأشعر مني ولكنك له وامق، فطلّقها، فخلفه

عليها علقمة، فسمي علقمة الفحل^(١)، ويقال: بل كان في قومه رجل يقال

له: علقمة الخصي، ففرقوا بينهما بهذا الاسم^(٢).

على أن لي على حكومة أم جندب ملحظين:

أحدهما: أن بعض الروايات تذكر أنهما احتكما إلى أم جندب فقالت

لهما: فؤلا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة^(٣).

(١) الشعر والشعراء، ص ١٣٠، وانظر: الموشح، ص ٣٥، ٣٦.

(٢) انظر: الشعر والشعراء، ص ١٣٠، والموشح، ص ٣٥.

(٣) انظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ١٦٤، ١٦٥.

فإن القافية والروي كاصطلاحين عروضيين لم يكونا قد عرفا في عصر هذا النقد ، مما يجعلني أرجح أن هذه العبارة قد أضيفت إلى الرواية في عصر متأخر، لعله - كما ذكر الأستاذ الدكتور/ محمد السعدي فرهود - عصر أبي عبيدة (٢٠٩هـ) أول من روى القصة.

ثانيهما: أن أم جندب - فيما يبدو - قد تأثرت ببغضها امرأ القيس - وكان مفركاً^(١) - فتحاملت عليه ، أو أن التوفيق لم يحالفها في نقدها ، فقد قال امرؤ القيس:

فللسوط أهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذوف الوليد المثقب

" فهذا البيت الثاني يدل على أن فرس امرئ القيس أدرك القطيع لم يجهد - أي لم يتعب ولم يثن شأوه - أي لم يكرر شوطه - وإنما أدرك القطيع من أول حُضْر^(٢)، وهو لا يبلغ ذلك إلا إذا كان نشيطاً ذا سبيح ، فهو بهذا لا يقل عن فرس علقمة إن لم يفقه^(٣)، يضاف إلى ذلك أن الفرس مهما كان نشيطاً فإن الفارس المقدام لا يكون خاملاً على ظهره ، إنما تكون له صولات وجولات، وزجر وصياح مما يروع الخصم ويربك الفريسة ويزيد الفرس حدة ونشاطاً.

(١) مفرك: تبغضه النساء ، ولا يحظى عندها.

(٢) الحضر (بضم فسكون) : عدو ذو وثب.

(٣) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ١٧٥ .

ثالثاً: الاستحسان والاستهجان:

فمن باب الاستحسان ما روي من أن النابغة الذبياني قدم يثرب ،
فدخل السوق ، ونزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على
عصاه ثم أنشأ يقول:

عرفت منازلنا بعريتنا فأعلى الجزع للحبي المبن

قال حسان: فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافية منكراً ، فما زال
النابغة ينشد حتى أتى على آخرها ، ثم قال: ألا رجل ينشد ، فتقدم قيس بن
الخطيم فجلس بين يديه ، وأنشده قوله:

أتعرف رسمًا كاطراد المذاهب

فلم يزد قيس على نصف البيت حتى قال النابغة: أنت أشعر الناس ،
قال حسان: فدخل في نفسي منه، وإني لأجد القوة في نفسي عليهما فتقدمت ،
وجلست بين يديه ، فقال لي: أنشد ، فإنك لشاعر قبل أن تتكلم ، وكان
يعرفني قبل ذلك ، فلما أنشدته قال لي: أنت أشعر الناس^(١).

فقد استحسنت النابغة شعر قيس بن الخطيم واكتفى منه بالمطلع؛ إذ
أدرك " أنه استهلال يدل على شاعرية فائقة وذهنية بارعة ، فمثل هذا
الاستهلال يكشف عن معدن صاحبه ، وسلامة معناه ولفظه ، وربما كان
التقدير أن سياق القصيدة متوالٍ على هذا النسق فقضى لقيس بأنه أشعر
الناس ، أما الأمر مع حسان فمختلف ، ونحن نستنتج من قول النابغة له

(١) الأغاني ٢/ ١٥٧.

أولاً: (إنك لشاعر قبل أن تتكلم)، وقوله له آخرًا : (إنك أشعر الناس)
أن حسان أنشده شعرًا رفع قدره في نظره ، ونرجح أن حلول النابغة
يثر ب استوجب منه الوفاء بحق الاستضافة إن لم يكن دفعه إلى إيثار
العافية والسلامة ، وإذا صح هذا قلل من قيمة حكمه كناقد ، وخاصة
أنه جعل قيسًا وحسان على درجة سواء ، وإن كان هذا جائزًا في عرف
من يقومون بتوزيع الجوائز فهم يكررونها^(١).

- ومن هذا القبيل ما روي من أن الحطيثة سئل عن أشعر الناس
فقال: أبو دؤاد حيث يقول^(٢):

لا أعد الإقتار عمدًا ولكن فقد من قد رزئته الإعدام
وسئل مرة أخرى فقال الذي يقول^(٣):

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
وليس الذي يقول:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
بدونه ، ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولا، والله لولا الجشع لكنت
أشعر الماضين ، وأما الباكون فلا شك أني أشعرهم^(٤).

(١) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٤٢ .

(٢) الشعر والشعراء ، ص ٢١٤ .

(٣) هذا البيت لزهير ، والذي يليه للنابغة .

(٤) العمدة ١ / ٩٦ ، ٩٧ .

- ومن قبيل الاستحسان ما روي عن حسان بن ثابت من أنه كان عند النعمان بن المنذر، فأقبل النابغة فاستأذن ، فقدم وهو يقول:

أَنام أم يسمع رب القبه يا أوهب الناس لعيسٍ صُلبه
ضَرَّابَة بالمشفر الأذبه ذات تجاف في يديها حدبه^(١)

فقال النعمان: أبو أمامة ، أدخلوه ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
فأمر له بياثة ناقة فيها رعاؤها ومطافيلها^(٢) وكلاهما. قال حسان:
فخرجت من عنده لا أدري أكنت له أحسد على شعره أم على ما نال من جزيل
عطائه؟^(٣).

وأما الاستهجان فمنه:

١ - ما روي من أن النابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر:

تراك الأرض إما مت خفا وتحيا إن حييت بها ثقيلا

فقال النعمان: هذا بيت إن أنت لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح ، فأراد النابغة ذلك فعسر عليه ، فقال: أجلني . قال: قد أجلتك ثلاثاً ، فإن أنت أتبعته ما يوضح معناه فلك مائة من العصافير

(١) المشفر: في البعير كالشفة من الإنسان ، وجمعه مشافر. الأذبة: جمع ذباب ، وهو اسم يطلق على كثير من الحشرات المجنحة.

(٢) المطافيل: جمع مطفل، وهي الناقة التي معها ولدها.

(٣) جبهة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ص ٦٢، ٦٣، دار صادر، بيروت.

نجائب ، وإلا فضربة بالسيف أخذت منك ما أخذت، فأتى النابغة زهير بن أبي سلمى ، فأخبره الخبر، فقال زهير: اخرج بنا إلى البرية فإن الشعر بريّ، فخرجا ، فتبعهما كعب بن زهير - وإنه لغلام - فقال: يا عم أردفني ، فصاح به أبوه ، فقال النابغة: " دع ابن أخي يكون معنا ، فأردفه ، فتجاولا البيت ملياً ، فلم يأتها ما يريدان ، فقال كعب: فما يمنعك أن تقول:

وذاك بأن حللت العز منها فتمنع جانبيها أن يزولا

قال النابغة: جاء بها ورب الكعبة ، قد جعلت لك يا بن أخي ما جعل لي ، قال كعب: وما جعل لك يا عم؟ قال: جعل لي مائة من العصافير نجائب. قال: ما كنت لأخذ على شعري صفاً ، فأتى النابغة النعمان بالبيت فأخذ مائة ناقة سوداء الحدقة^(١).

فكلام النابغة يحتمل المدح والذم، وهذا ما يسميه علماء البلاغة التوجيه، ويعدونه من المحسنات البديعية^(٢)، ولكن النعمان أراد أن يدخل كلام النابغة في باب المدح الخالص دون احتمال للمعنى الآخر الذي لا يليق بمقام الملوك^(٣).

(١) الموشح للمرزباني ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) ومنه قول بشار: خاط لي عمرو قباء ليت عينيه سواء

فهو يحتمل أن يكون دعاء بصحة العوراء ، أو بعور الصحيحة ، ولذا قال بعده:

فاسأل الناس جميعاً أمديح أم هجاء

انظر: بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ٤ / ٦٤ ، مكتبة الآداب ، ط ١٧ ، ١٤٢٦ هـ

(٣) انظر: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٥٩ .

٢- مر المسيب بن علس بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستشده
فأنشدهم:

ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم نحييك عن شحط وإن لم تكلم
فلما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهم عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكدم^(١)
قال طرفة - وكان صبيّاً - : استنوق الجمل^(٢)، " فطرفة أدرك بحاسته
الأدبية أن الشاعر جافى منطق الأشياء وخلط ، إذ وصف الجمل بسمة من
سمات الناقة ، ودفعته جرأة الصبي وسذاجته إلى أن يعلن ريبته فيما
سمع"^(٣).

٣- يذكر الرواة أن النابغة الذبياني أقوى^(٤) في داليتيه مرتين، وذلك في قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود

(١) ادكاره: تذكره. ناج: بغير سريع، الصيعرية: علامة تكون في عنق الناقة لا البعير، ومن هنا كان

نقد طرفة، مكدم: غليظ صلب قوي.

(٢) الموشح، ص ٩٨.

(٣) اتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ١٠٠.

(٤) الإقواء: اختلاف حركة الروي من حركة ثقيلة كالكسرة في بيت إلى حركة أخرى تشبهها في

الثقل كالضمة في بيت آخر، ويُعدُّ الإقواء من عيوب الشعر العربي. (انظر: التقفية في اللغة لأبي

بشر اليمان، ص ٦٣، تحقيق: د. خليل إبراهيم عطية، ومعجم اللغة العربية الحديثة، مادة:

"قوي").

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود^(١)

وقوله:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته، واتقتنا باليـد^(٢)

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد^(٣)

فقدم المدينة، فعيب عليه ذلك ، فلم يأبه له حتى أسمعوه إياه في غناء،
وقالوا للجارية: إذا صرت إلى القافية فرتلي ، فلما غنته الجارية، فطن فلم يعد
إلى ذلك، وأصلح البيت الأول فجعله:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود^(٤)

وأصلح البيت الآخر فجعله:

بمخضب رخص كأنه بنانه عنم على أغصانه لم يعقد

وكان يقول: دخلت يثرب وفي شعري شيء، وخرجت وأنا أشعر الناس^(٥).

(١) البوارح: ما مر من الطير عن يمينك إلى يسارك، والسوانح عكس ذلك، وكانت العرب تتشائم

بالبوارح وتتميم بالسوانح. (انظر: اللسان، مادة "برح").

(٢) النصيف: كل ما غطى الرأس من خمار أو عمامة ونحو ذلك.

(٣) العنم (بفتحتين): شجر لين الأغصان يشبه به بنان الجواري.

(٤) تنعاب الغراب: صوته وصياحه.

(٥) راجع في ذلك: الأغاني ٩ / ١٥٦، ١٥٧، وطبقات فحول الشعراء ١ / ٦٧، ٦٨، والشعر

والشعراء، ص ٨٧، وجمهرة أشعار العرب، ص ٦٣، ٦٤، واتجاهات النقد الأدبي العربي، ص

١٢٢، ١٢٣.

٤- قال أبو عمرو بن العلاء: فحلان من الشعراء كانا يقويان: النابغة
الذبياني ، وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره فلم يعد
إلى إقواء ، وأما بشر فقال له أخوه سواده : إنك تقوي ، فقال: وما الإقواء؟
قال قولك:

ألم تر أن طول الدهر يسلي وينسي مثل ما نسيت جذام
ثم قلت:

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم إلى البلد الشام
ففظن بشر فلم يعد^(١).

الاختيار أو الانتخاب:

وهو ثمرة من ثمرات الاستحسان ، إذ يظن المنتخب بذكائه وخبرته
إلى أن أدبًا ما أو أديبًا ما قد بلغ درجة من الحسن والجودة فصار بحيث
ينبغي أن يشار إليه ، وأن يُجْعَل في صدر نوعه ، وأنموذجًا لجنسه^(٢).
ومن ذلك اختيارهم المعلقات استجدادة واستحسانًا لها ، قال صاحب
العمدة: " وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من
سائر الشعر فكتبت في القباطي بهاء الذهب وعُلِّقت على الكعبة ، فلذلك
يقال: مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره"^(٣).

(١) الشعر والشعراء ، ص ١٦٨ ، والموشح للمرزباني ، ص ٧٥.

(٢) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٤٧.

(٣) العمدة ١/ ٩٦.

وقال صاحب العقد: "كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيد لأيامها ، والشاهد على أحكامها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به ، وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع ، وقد يقال لها : المعلقات" (١).

وقال البغدادي: " ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية: يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ، ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسونه رُوي وكان فخراً لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة ، حتى يُنظر إليه ، وإن لم يستحسونه طُرح ولم يعبأ به" (٢).

وسواء أكان التعليق حسياً كما تذكر هذه الروايات أم معنوياً - كما يرى بعض النقاد - فإن الذي يعيننا في هذا البحث هو اختيارهم هذه القصائد، واستجداتهم إياها ، وهو ما عبر عنه صاحب العمدة بقوله : "لأنها اختيرت من سائر الشعر" ، وصاحب العقد بقوله : "حتى لقد بلغ

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ٨٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: ١ ، ١٤٠٤ هـ.

(٢) خزائن الأدب للبغدادي ١/ ٨٩ ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط: ٤ ،

١٤١٨ هـ - ١٩٧٧ م.

من كلف العرب به - يعني الشعر - وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تحيرتها من الشعر القديم"، والبغدادي بقوله: "فإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله... وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به".

طبيعة النقد ومنهجه في العصر الجاهلي:

بعد عرض ما مضى من نماذج نستخلص أهم النقاط التي تنبئ عن طبيعة النقد الجاهلي ومنهجه فنقول:

١- كان النقد في هذا العصر نقداً فطرياً ذاتياً يعتمد على الذوق أكثر من اعتماده على أي شيء آخر، فهو - في جملته - عبارة عن مجموعة من الآراء حول محاسن أو مساوئ الشعر والشعراء، تأتي في الغالب مُعلّلة، وربما جاء بعضها معللاً تعليلاً موجزاً ينم عن وجهة نظر صاحبه.

٢- إن بعض الشعراء كانوا يتخذون من أنفسهم نقاداً لأشعارهم، فيتعهدونها بالتنقيح والتهذيب، فكان الشاعر منهم - كما قال الجاحظ^(١):-
"يجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، حتى يجنبوا أنفسهم وأشعارهم اللوم والمؤاخذة".

٣- إن أحكامهم النقدية كثيراً ما ترد عامة مطلقة، مثل قولهم: فلان أشعر الناس، أو أشعر العرب، أو أشعر الجن والإنس، ونحو ذلك، وربما

(١) انظر: البيان والتبيين ٢ / ٩.

أنت غامضة تحتاج إلى تفسير^(١)، فقد ذكر صاحب الموشح أن الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهم، وعبد بن الطبيب، والمخبل السعدي احتكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي، في الشعر، فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن، لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيئاً فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلأأ فيها البصر، فكلمة أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليست تقطر ولا تمطر^(٢).

يريد الناقد أن يقول للزبرقان: شعرك رديء، فشبهه بلحم أسخن وهو - كما فسر - ليس ناضجاً فيؤكل، ولا نيئاً فينتفع به، وأما عمرو بن الأهم فشعره - في نظر الناقد - حسن المظهر، ولكن لا طائل من ورائه، فكلمة أعيد فيه النظر نقص البصر، وأما عبدة فيرى الناقد أنه أحكم صنعته كمزادة أحكم خرزها، وأما المخبل فشعره قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم.

ونحو ذلك ما روي من أن هؤلاء الشعراء الأربعة - الزبرقان، وعبد بن الطبيب، والمخبل، وعمرو بن الأهم - اجتمعوا في موضع فتناشدوا أشعارهم، فقال عبدة: إما أن تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم،

(١) انظر: محاضرات في النقد الأدبي، أ.د/ محمد عرفة المغربي، ص ٢١، طبعة المؤلف.

(٢) الموشح للمرزباني، ص ٩٦.

قالوا: أخبرنا. قال: فإني أبدأ بنفسي ، أما شعري فمثل سقاء وكيع - وهو الشديد يصطنعه الرجل فلا يسرب عليه^(١) - وغيره من الأسقية أوسع منه، وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزور منحورة فأخذت من أطايبها وأخابثها ، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك العلاط والعراض^(٢).

على أنني أؤكد أن الإيهام والغموض من الأمور النسبية التي ترتبط بعصر النص وبيئته ، ويدعم ذلك أن هؤلاء الشعراء لم يطلبوا من الناقد توضيح نقده أو تفسيره ، مما يدل على أنهم استوعبوا ما قيل ، إذ لم يكن غريباً عليهم أو غامضاً عندهم.

٤- قوة الحاسة الأدبية والنقدية، فلم يكد النابغة يسمع نصف بيت من قيس بن الخطيم حتى يحكم له بأنه أشعر الناس، وما أن سمع طرفة بن العبد المسيب بن علس يسم بعيره بالصيعرية حتى صاح - وهو صبي - استنوق الجميل، ويدعم ذلك ما روي من أن مهلهل بن ربيعة لما غدره عبده، وقد كبرت سنه ، وشق عليها ما يكلفها من الغارات وطلب الثارات^(٣)، فأرادا قتله ، فقال: أوصيكما أن ترويا عني بيت شعر، قالوا: وما هو؟ قال:

(١) لا يسرب : لا يقطر.

(٢) العلاط: ميسم الإبل في العنق ، العراض: سمة في عرض الفخذ، وانظر: الموشح للمرزباني ص ٩٧، على أن الرواية لم تتعرض لشعر عمرو بن الأهم، فربما أغفله الناقد أو غفل عنه الراوي.

(٣) الثارات: جمع ثار، ويجمع ثار على أثار، وثارات ، وتسهل الهمزة ، فيقال: ثارات. (انظر: المعجم الوسيط: مادة "ثار").

من مبلغ الحيين أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما
فلما زعم العبدان أنه مات قيل لهما: هل أوصى بشيء؟ قالوا: نعم،
وأنشدا البيت، فقالت ابنته: عليكم بالعبدين فإنما قال أبي:
من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا
فاستقروا العبدين فأقرا أنهما قتلاه^(١).

وأخيرًا يمكن أن أقرر - وباطمئنان - أن العقلية العربية في العصر
الجاهلي لم تكن عقلية جامدة، بل كانت عقلية واعية، وكانت على درجة
عالية من الفصاحة والبلاغة، ولو لم يكونوا كذلك لما تحداهم القرآن الكريم
بإعجازه البياني، ونحن نعلم أن كل رسول أو نبي يؤيد بمعجزة من جنس
ما اشتهر به قومه، فلو لم يكونوا على درجة عالية من البيان واللسن
والفصاحة والتميز لما تحداهم القرآن بهذا اللون من الإعجاز.

* * *

(١) العمدة ١ / ٣٠٨.

الفصل الثاني

الجدور التراثية للنقد في عصر صدر الإسلام

الجدور التراثية للنقد في عصر صدر الإسلام

موقف الإسلام من الشعر :

لم يقف الإسلام من الشعر موقف العداء، أو المواجهة، إنما عمل على تقويمه وتهذيبه بما يتفق ومبادئ هذا الدين ، فكما نهى عن الفحش من القول نهى عن الفاحش من الشعر ، وكما أباح الطيب من سائر الكلام أباح الطيب من الشعر، وقد روي ما يفيد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان ينظر إلى الشعر على أنه كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه ، وأنه (صلى الله عليه وسلم) استمع إليه ، وأثاب بعض قائله ، وحث في بعض المواقف على قوله ، كما دعا في بعض المواقف إلى إنشاده ، وسيأتي - بمشيئة الله - تفصيل ذلك في المبحث التالي.

أما قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١). فواضح أنه لم يحرم الشعر، إنما صنّف الشعراء، فالحكم الأول على الشعراء نزل - على ما روى ابن عباس - في شعراء المشركين عبد الله بن الزبيري ، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبي عزة الجمحي ، وأمّية بن أبي الصلت ، قالوا: نحن نقول مثل

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤-٢٢٧.

قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يسمعون أشعارهم وأهاجيهم، فنزلت فيهم الآية (١).

أما الاستثناء فنزل في رهط من الأنصار كانوا ينافحون ويدافعون عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} جاءوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم يبكون، فقالوا: يا رسول الله، لقد أنزل الله تعالى هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء، هلكننا، فأنزل الله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فدعاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتلاها عليهم (٢).

وأما قوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} (٣) فهو تنزيه للنبي (صلى الله عليه وسلم) عن قول الشعر حتى لا يقال: إنه شاعر أو إن القرآن لون من ألوان الشعر، وإذا كان كفار قريش قد افتروا ذلك، ورموا به النبي (صلى الله عليه وسلم) ظلماً وبهتاناً، وهو من ذلك براء، فما بالكم لو كان النبي (صلى الله عليه وسلم) شاعراً؟ على أن نفي الشعر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يغض من شأن الشعر،

(١) روح المعاني للألوسي ١٩/١٤٦، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٥هـ.

(٢) المرجع السابق ١٩/١٤٧.

(٣) سورة يس: الآية ٦٩.

وإلا لكان في أميته (صلى الله عليه وسلم) غض من شأن القراءة والكتابة، وهذا ما لم يقل به أحد، بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل فداء بعض الأسرى في غزوة بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة^(١).
وأما قوله (صلى الله عليه وسلم): "لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا"^(٢)، فحمله الشافعي (رحمه الله) على الشعر المشتمل على الفحش، وسمعت السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن أبا هريرة يروي هذا الحديث، فقالت: "رحم الله أبا هريرة، إنما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا أَوْ دَمًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا هُجِيَتْ بِهِ"^(٣).

وقيل: إنما المقصود بالذم هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغل عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله وتلاوة القرآن^(٤).
يقول الإمام عبد القاهر في الرد على من يكره الشعر: نعم، وكيف رويت هذا الحديث ولهجت به، وتركت قوله (صلى الله عليه وسلم): "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا؟ وكيف نسيت أمره (صلى الله

(١) طبقات ابن سعد ٢/١٤، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م.

(٢) يريه: يفسده، والحديث في صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم ٢٢٥٨.

(٣) راجع: روح المعاني للألوسي، ١٩/١٥، ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ص ١٦، تحقيق:

محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م، والحديث في مسند أبي يعلى، رقم ٢٠٥٦.

(٤) العمدة ١/٣٢.

عليه وسلم) بقول الشعر، ووعدده عليه الجنة ، وقوله لحسان: " قل وروح القدس معك " ، وسماعه له ، واستنشاده إياه ، وعلمه (صلى الله عليه وسلم) به ، واستحسانه له ، وارتياحه عند سماعه^(١).

فالسنة العملية توجب صرف الدم والتقيح لنوع من الشعر يخالف صراحة الدين وتعاليمه ، ويدعو إلى قيم الجاهلية ومثلها ، وهذا هو المعنى الذي توحى به الآيات الكريمة في سورة الشعراء^(٢).

النبي (صلى الله عليه وسلم) ناقداً:

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أفصح العرب كافة ، يقول له الإمام علي (كرم الله وجهه): يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه ، فمن علمك؟ فقال (صلى الله عليه وسلم): "أدبني ربي فأحسن تأديبي"^(٣)، ويقول له الصديق (رضي الله عنه): لقد طفت في العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ فأجابه (صلى الله عليه وسلم) بمثل ما أجاب به الإمام علياً. ومن هنا نقول: إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان أقدر العرب على تذوق الكلام ونقده ، وسأعرض لك من النصوص ما يدعم هذا القول:

(١) دلائل الإعجاز ١٦، ١٧.

(٢) معالم على طريق النقد القديم د/ رجاء عبد المنعم جبر، ص ٥٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ٤/١، تحقيق: طاهر الزاوي - محمود الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١- أتى النابغة الجعدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنشده

قوله:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنما لـنرجو فوق ذلك مظهرًا
فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة
يا رسول الله، قال: أجل إن شاء الله، ثم أنشده الجعدي قوله:
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدر
فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أجدت، لا يفضض الله فاك،
فبقي عمره لم تسقط له سن، وكان معمرًا^(١).

٢- أنشد حسان قوله يرد على أبي سفيان بن الحارث:

هـجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فقال (صلى الله عليه وسلم): جزاؤك عند الله الجنة يا حسان، فلما قال
حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
قال (صلى الله عليه وسلم): (وقاك الله حر النار)، ففضى له بالجنة
مرتين في ساعة واحدة^(٢).

(١) انظر: الشعر والشعراء ص ١٨١، ودلائل الإعجاز ص ٢١، ٢٢، وجمهرة أشعار العرب ص ٢٣.

(٢) العمدة ١ / ٥٣.

٣- مر النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) برجل يقول في بعض أزقة مكة:

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد الدار
فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): يا أبا بكر، أهكذا قال الشاعر؟
قال: لا، يا رسول الله، ولكنه قال:

يا أيها الرجل المحول رحله هلا سألت عن آل عبد مناف
فقال (صلى الله عليه وسلم): هكذا كنا نسمعها^(١).

٤- وعندما قال عبد الله بن رواحة:

نجالد الناس عن عرض ونأسرهم فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنا ليس يغلبنا حي من الناس إن عزوا إن كثروا
فلما انتهى إلى قوله في النبي (صلى الله عليه وسلم):

فثبت الله ما أعطاك من حسن تثبيت موسى ونصرًا كالذي نصروا
أقبل عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) بوجهه، وقال: وإياك فثبت
يا بن رواحة^(٢).

٥ - رُوي أن أم المؤمنين سودة بنت زمعة (رضي الله عنها) أنشدت
قول قيس بن معدان الكلبي:

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢١، وانظر: الأمالي لأبي علي القالي ١/٢٨٩، ٢٩٠، ط الهيئة المصرية العامة
للكتاب، سنة ١٩٧٥ م، والشعر لمطروود بن كعب الخزاعي يرثي عبد المطلب جد النبي (صلى الله عليه
وسلم).

(٢) العمدة ١/٢١٠.

عدي وتيم تبتغي من تحالف^(١).

فظنت عائشة وحفصة (رضي الله عنهما) أنها عرضت بهما ، وجرى
بينهن كلام في هذا المعنى ، إذ كان أبو بكر (رضي الله عنه) من تيم قريش،
وعمر (رضي الله عنه) من عدي قريش ، فأخبر النبي (صلى الله عليه وسلم)
بذلك فدخل عليهن ، وقال: "يا ويلكن ، ليس في عديكن ولا تيمكن قيل
هذا، وإنما قيل هذا في عدي تيم وتيم تيم"^(٢).

ألا تعجب من فطنته (صلى الله عليه وسلم) ومعرفته دقائق الأخبار؟!
٦- عن محمد بن سلمة الأنصاري قال: كنا يوماً عند النبي (صلى الله عليه
وسلم) فقال لحسان بن ثابت: أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله قد
وضع عنا آثامها في شعرها وروايتها ، فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها
علقمة بن علاثة يقول فيها:

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر؟!

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة
بعد مجلسك هذا ، فقال: يا رسول الله ، تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند
قيصر؟ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): يا حسان ، أشكر الناس للناس
أشكرهم لله تعالى ، وإن قيصر سأل أبا سفيان عني فتناول مني - وفي رواية

(١) هذا عجز بيت ، وصدرة : ألا من رأى العبدین أو ذُكِر له؟ عدي وتيم...

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ص ٢٠.

فشعث مني - وإنه سأل هذا - يعني علقمة بن علاثة - عني فأحسن القول، فشكره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ذلك ، وروي أن حسان قال - بعد أن سمع ما سمع من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا رسول الله . من نالتك يده وجب علينا شكره (١).

٧- لما سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) قول كعب بن زهير قبل إسلامه، يحذر أخاه بجيراً من اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول: ألا من مبلغ عني بجيراً رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك سقاك بها المأمون كأسا روية فأهلك المأمون منها وعلكا ففارقت أسباب الهدى واتبعته على أي شيء - ويب غيرك - دلكا على خلق لم تلف أمّا ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخا لكا فإن أنت لم تفعل فلست بأسف ولا قائل إما عشرت لعا لكا فما سمع (صلى الله عليه وسلم) قوله: "سقاك بها المأمون" قال: مأمون والله - فقد كانوا يسمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المأمون - ولما سمع قوله: على خلق لم تلف أما ولا أباً البيت قال (صلى الله عليه وسلم): أجل ، لم يلف عليه أباه ولا أمه ، ثم قال: من لقي منكم كعب ابن زهير فليقتله ، ثم جاءه كعب تائباً ، وأنشده قصيدته التي مطلعها:

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٩.

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
فلما انتهى إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
ألقى النبي (صلى الله عليه وسلم) عليه بردة كان يلبسها^(١)، ويروى أن النبي
(صلى الله عليه وسلم) أصلح البيت ، إذ قال كعب: مهند من سيوف الهند.
فقال (صلى الله عليه وسلم): من سيوف الله^(٢)؛ فأقام اللفظ والمعنى.
فلما وصل كعب إلى قوله في وصف أصحاب النبي (صلى الله عليه
وسلم):

في فتية من قريش قال قائلهم بطن مكة لما أسلموا زولوا^(٣).
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل^(٤).
شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرايل^(٥)

(١) راجع شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ، ص ٣٣ وما بعدها، طبع البابي الحلبي، مصر، ١٣٧١هـ.

(٢) انظر: محاضرات في النقد الأدبي، أ.د/ محمد عرفة المغربي، ص ٣٧.

(٣) زولوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة، يعني الأمر بالمهجرة.

(٤) الأنكاس: جمع نكس، وهو الضعيف المهين، الكشف: جمع أكشف، وهو من لا ترس معه في الحرب، الميل: جمع أميل، وهو الذي لا سيف معه ، أو الذي لا يحسن الركوب، المعازيل: جمع معزال، وهو الذي لا سلاح معه.

(٥) الشم: جمع أشم، وهو الذي في قصبة أنفه علو مع استواء أعلاه. العرانيين: جمع عرين هو الأنف، والمراد أن فيهم استعلاء وأنفه. السرايل: جمع سربال، وهو الدرع أو كل ما يلبس في الحرب.

لا يفرحون إذا زالت رماحهم قومًا وليسوا مجازيعَ إذا نيلوا^(١)
جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) ينظر إلى من كان بحضرته من
قريش كأنه يومئ إليهم أن اسمعوا^(٢).

٨- روي أن الأعشى - ميمون بن قيس - خرج يريد النبي (صلى الله
عليه وسلم) ، فقال شعرًا ، حتى إذا كان ببعض الطريق نفرت به راحلته
فقتلته، ولما أنشد - بالبناء للمجهول - شعره الذي يقول فيه:

فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفا حتى تلاقي محمدًا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تفوزي وتلقي من فواضله يدا
قال النبي (صلى الله عليه وسلم): كاد ينجو ولما^(٣)، أي ولم يحصل له
الفوز بالإسلام والنجاة.

٩- وفي كتاب الأغاني أن النبي (صلى الله عليه وسلم) علق على شعر
ثلاثة الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ،
فقال: " أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك
فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى " ^(٤).

(١) مجازيع: جمع مجزاع، وهو الشديد الجزع.

(٢) انظر: شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام، ص ٢٧٢.

(٣) جبهة أشعار العرب لابن زيد القرشي، ص ٦٧.

(٤) الأغاني ٤ / ٦.

وحقاً إن حسان يتقدم صاحبيه في الشعر بصفة عامة ، فهو أشعر شعراء المدينة^(١) ، وفي هجاء أعداء الإسلام بصفة خاصة ، إذ بلغ فيه درجة جعلت الأعداء يرهبون لسانه ، "ولقسوة هجائه استعاذ الحارث بن عوف منه بالرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلاً : يا محمد أنا عائد بك من شعره فلو مزج البحر بشعره مزجه"^(٢).

١٠ - وفي مجال الاستحسان كان (صلى الله عليه وسلم) كثيراً ما يقول:
للسيدة عائشة (رضي الله عنه) : أبياتك ، فتنشده :

ارفع ضعيفك لا يحرك بك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نجا
يجزيك أو يثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى
فيقول (صلى الله عليه وسلم) : " يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عباده: صنع إليك عبدي معروفاً فهل شكرته عليه؟ فيقول : يارب ، علمت أنه منك فشكرتك عليه " قال: فيقول الله عز وجل: لم تشكرني ، إذ لم تشكر من أجرته على يده "^(٣).

وعندما سمع (صلى الله عليه وسلم) قول قتيلة بنت النضر بن الحارث تبكي أباه ، وتعتب على النبي (صلى الله عليه وسلم) في قتله ، فتقول:

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ / ٢١٥ .
(٢) حسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعة ، ص ٥٨ ، ط دار المعارف .
(٣) دلائل الإعجاز، ص ١٩ ، ٢٠ ، وقد ذكر الشيخ محمود شاکر في تحقيقه أن الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١ / ١٦٣ .

يا راكبًا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ به ميتا بأن قصيدة ما إن تزال بها الركائب تخفق
مني إليه، وعبرة مسفوحة جادت لمائجها وأخرى تخنق
فليسمعن النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد إلى المنيّة متعباً رسف المقيد وهو عان موثق
أحمد ها أنت نجل نجيبة من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من قتلت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق

قال (صلى الله عليه وسلم): لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه^(١).

ولو ذهبت أعدد ما أثير عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من نظرات
نقدية لطال بي المقال ، فأكتفي بهذا القدر من نقده (صلى الله عليه وسلم)
على أمل دراسة هذا النقد دراسة تفصيلية في مقام يسمح بذلك ، وعزائي -
هنا- هو أني أنتقل من الحديث عن نقد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى
الحديث عن نقد من تربوا على يديه ، وتخرجوا في مدرسته ، وهم أصحابه
وخلفاؤه ، رضوان الله على الجميع.

(١) العمدة ١ / ٥٦ ، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٢ ، ٤٣ حققه: مصطفى السقا وآخرون،

طبع مصطفى الباوي الحلبي، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

الرؤية النقدية عند أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين:

من يطالع كتب الأدب والنقد ، ويمعن النظر فيها يحظى بثروة نقدية عظيمة ، تمثل وجهة أصحاب وخلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويدرك أنهم أعطوا هذا الفن حقه ، إذ كانوا " يفسحون في مجال اهتمامهم بقضايا الدين والدولة مكاناً لقضية الشعر والنقد " (١).

وكان أبرزهم في هذا الميدان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، فقد كان عالماً بالشعر ، ناقداً له ، كثيراً ما يسأل عنه ، أو يبدي فيه رأياً ، أو ينشده ، ويتمثل به ، ومن آرائه النقدية:

(أ) في مجال الاستحسان:

١- روى الجاحظ عن علي بن مجاهد عن هشام بن عروة ، قال: سمع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجلاً ينشد:

متى تأته تعشوا إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فقال (رضي الله عنه): ذاك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (٢).

٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال عمر بن الخطاب (رضي الله

عنه): أنشدني قول زهير. فأنشدته قوله في هرم بن سنان:

قوم أبوهم سنان حيث تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

(١) معالم على طريق النقد القديم ، ص ٦١ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٩ .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
فقال عمر (رضي الله عنه): ما كان أحب إليّ لو كان هذا الشعر في أهل بيت
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (١).

٣- دخل متمم بن نويرة على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بعد
استشهاد زيد بن الخطاب في حروب الردة، فقال له عمر: أنشدني في بعض
ما قلت في أخيك، فأشده قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

فقال عمر: يا متمم لو كنت أقول الشعر لسرني أن أقول في زيد بن
الخطاب مثل ما قلت في أخيك ، فقال متمم: يا أمير المؤمنين لو قتل أخي
قتلة أخيك ما قلت فيه شعراً أبداً ، فقال عمر: يا متمم ما عزاني أحد في
أخي بأحسن مما عزيتني به (٢).

ففي هذه النماذج تظهر فطنة عمر وإدراكه مواطن الجودة والإصابة في
كل من المديح والرثاء ، ففي الأنموذج الأول لم يكد عمر يسمع البيت حتى
أبدى رأيه ، فذكر أن هذا المديح إنما ينطبق على رسول الله (صلى الله عليه

(١) انظر: تقديم أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب نقد الشعر لقدماء بن جعفر ، ص ٢٤ ، ٢٥ ،
تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، ط: دار عطوة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط: ١ ، ١٤٠٠ هـ
-١٩٨٠ م.

(٢) الشعر والشعراء ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

وسلم) فهو خير الخلق وأكرمهم ، لذا فهو أحق بهذا المدح وأولى به ، وما أن
سمع بيتي زهير حتى تمنى أن لو كان هذان البيتان في أهل بيت رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) فهم أهل ذلك ، وهو بهم أشبه وأنسب .
ولما سمع شعر متمم استطابه ؛ لأنه شعر يعبر عن حالته هو ، ويصور
العلاقة بينه وبين أخيه حيًا وميتًا ، ولذا تمنى أن يكون هو صاحب الشعر
وقائله (١) .

ثم استطاب عمر ما عقب به متمم من ذكر الفرق بين قتل أخيه مالك
وقتل زيد بن الخطاب ؛ لأن هذا التعقيب لمس جراح عمر (رضي الله عنه) ،
ولأنه أنموذج لما ينبغي أن يقال في مثل هذه المناسبة ، ولهذا ارتضى عمر قوله
وشكر له (٢) .

(ب) في مجال اختيار الشعراء :

١- عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال : قال عمر بن الخطاب
(رضي الله عنه) : ألا تنشدني لشاعر الشعراء؟ فقلت : ومن هو يا أمير
المؤمنين؟ قال : زهير، قلت : ولم كان كذلك؟ قال : كان لا يعاظم (٣) بين

(١) انجاءات النقد الأدبي العربي، ص ١٠١ .

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٠١ .

(٣) يقال: عاظم بالكلام إذا عقده وصعبه، وعاظم في شعره إذا جعل بعض أبياته مفتقرًا في بيان
معناه إلى بعض، وفي اللسان: لم يعاظم في الكلام. أي لم يحمل بعضه على بعض، ولم يتكلم
بالرجيع من القول، ولم يكرر اللفظ والمعنى.

الكلام ، ولا يتبع حوشيه ^(١)، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه ^(٢).

فعمر اهتم بأمرين في شعر زهير: أولهما أسلوبه وصياغته حيث يأتي بالكلام سهلاً لا تعقيد في تراكيبه ولا حوشي في ألفاظه ، والأمر الآخر: صدقه الصدق الخلقى ، حيث يمدح الرجل بما فيه ، ولا يفرط في الشناء إفراطاً، ولا يغلو في معانيه غلوًّا ^(٣).

وقد استحسّن عمر الصدق لذاته ، ولما فيه من مكارم الأخلاق ، ولأنه لا يحسن في صناعة الشعر أن يعطى الرجل فوق حقه من المدح ، لئلا يخرج الأمر إلى التنقص والازدراء.

٢- خرج عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وببابه وفد غطفان ، فقال:

أي شعرائكم الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمراء مذهب
لئن كنت قد بلّغت عني سعاية لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولست بمستبق أخوا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل:

خطاطيف حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ تمد بها أيدي إليك نوازع
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(١) حوشي الكلام: وحشيه وغريبه.

(٢) العمدة ١ / ٩٨ ، وانظر: جمهرة أشعار العرب، ص ٥٧.

(٣) اتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ٨٠.

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل:

إلى ابن مُحَرَّقٍ أعملت نفسي وراحلتني وقد هدأت عيون
فألفيت الأمانة لم يخنها كذلك كان نوح لا يخون
أتيتك عاريًا خلقًا ثيابي على خوف تظن بي الظنون

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل:

إلا سليمان إذ قال المليك له: قم في البرية فاحدها عن الفند^(١)

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال: هو أشعر شعرائكم^(٢).

وإذا كان عمر (رضي الله عنه) قد حكم لزهير هناك والنابغة هنا –
على شاكلة من يكررون الجوائز – فإن الأخبار والروايات التي بين أيدينا
تدل على أنه (رضي الله عنه) كان أكثر إعجابًا بشعر زهير بن أبي سلمى،
وقد أشاد به في أكثر من موقف^(٣).

(ج) فيما يتعلق بفقهِ المعاني ومحاكمة الشعراء:

١ – كان الخطيئة جاريًا للزبيرقان بن بدر فلم يحمده جواره ، فتحول إلى
بغيش بن شماش فأكرم بغيش جواره ، فقال يمدحه ويهجو الزبيرقان:
ما كان ذنب بغيش أن رأى رجلا ذا حاجة عاش في مستوعر شاس^(٤)

(١) احدها: ازجرها وامنعها، الفند: الخطأ والظلم.

(٢) جمهرة أشعار العرب ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٣) انظر: العمدة ١ / ٥٥ ، ٨١ ، ٩٨ . وجمهرة أشعار العرب ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) شاس: أصله شأس (بالهمزة) وخفف لضرورة الشعر، وهو المكان الخشن والغليظ.

جاءوا لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيما بين أرماس^(١)
ملوا قراه وهرتة كلاهم وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فاستعدى عليه الزبرقان عمر (رضي الله عنه)، وأنشده آخر الأبيات، فقال
له عمر: ما أعلمه هجاءك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا، فقال الزبرقان:
إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا، فأرسل عمر إلى حسان بن ثابت فسأله
عن ذلك: فقال: لم يهجه ولكن سلح عليه^(٢).

وروي أنه سأل لبيدا فقال: ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه
وأن لي حمر النعم^(٣)، فأمر عمر بحبس الحطيئة، وقال له: يا خبيث لأشغلنك
عن أعراض المسلمين، وفي محبسه أخذ الحطيئة يعتذر إلى عمر (رضي الله
عنه) حتى رق له، وأطلق سراحه بعد أن أخذ عليه عهدا ألا يهجو أحدا من
المسلمين، ويروي أنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤).
ولم يكن هجاء الحطيئة خافيا على عمر ولكنه أراد درء الحدود
بالشبهات، وأمام إصرار الزبرقان على موقفه أرسل عمر إلى حسان لإقامة
الحجة على الحطيئة^(٥).

(١) الأرماس: القبور.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٢٠٧.

(٣) الأغاني ٢ / ٥٣.

(٤) المرجع السابق ٢ / ٥٣، ٥٤.

(٥) انظر طبقات فحول الشعراء، ص ١١٦، واتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ٧٦، ٧٧.

٢- هجاء قيس بن عمرو بن مالك المعروف بالنجاشي بني العجلان،
فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقالوا: يا أمير المؤمنين
هجانا، فقال (رضي الله عنه): وما قال فيكم؟ فأنشدوه:
إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبل
فقال عمر: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا: إنه قال:
قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كانوا كذلك، قالوا: فإنه
قال:
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل
فقال (رضي الله عنه) ذلك أقل للكأك - أي الزحام -، قالوا: فإنه قال:
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه قال:
وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا،
فقال ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت فسأله، فقال: ما
هجاهم ولكن سلح عليهم، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشي، وقيل:
إنه حده^(١).

(١) الشعر والشعراء، ص ٢١٠، والعمدة ١ / ٢٥.

وكان عمر (رضي الله عنه) أبصر الناس بما قال النجاشي ، ولكنه أراد - كما فعل في هجاء الحطيئة الزبرقان - أن يدرأ الحدود بالشبهات "فالتمس في كلا الشعرين - شعر الحطيئة وشعر النجاشي - البراءة وحسن النية، وجعل يستصفي المعاني التي أوجعت المهجوين ، ليمتص غضبهم ، حتى لا يحد الهجاة ، ثم لم يشأ إلا أن يوجه المسلمين إلى ما في دينهم من الساحة ، وأنه ينبغي أن يهزموا روح الجاهلية في نفوسهم ، ويقهروا الدوافع التي تبعثها ، ومن أجل هذا وذاك جعل يؤول شعر الهجاء (١).

وأمام إصرار المهجوين استدعى عمر (رضي الله عنه) حسانا ، فلما قال ما قال أنفذ عمر حكمه على الحطيئة والنجاشي ، " كالمقلد من جهة الصناعة، ولم يكن حسان - على علمه بالشعر - أبصر من عمر (رضي الله عنه) بوجه الحكم، وإن اعتل بما اعتل به " (٢).

وبإزاء عمر (رضي الله عنه) أو بجانبه نرى نخبة من الصحابة برعوا في هذا الميدان ، منهم: عبد الله بن عباس ، وكان عمر يستند في بعض المواقف إلى رأيه ، ويطمئن إليه ، على نحو ما روي من أن عمر (رضي الله عنه) كان جالسا في أصحابه يتذكرون الشعر والشعراء ، فيقول بعضهم: فلان أشعر ، ويقول آخر: بل فلان أشعر ، فقليل له : ابن عباس بالباب ،

(١) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٧٦ .

(٢) العمدة ١ / ٧٦ .

فقال عمر: قد أتى من يحدث من أشعر الناس؟ فلما سلم وجلس قال له

عمر: يا بن عباس ، من أشعر الناس؟

قال: زهير يا أمير المؤمنين ، قال عمر: ولم ذلك؟ قال: لقوله يمدح

هرماً وقومه:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا

جن إذا فرعوا، إنس إذا أمنوا مرزءون بهاليل إذا جهدوا^(١)

محسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ما به حسدوا

فقال عمر: صدقت يا بن عباس^(٢).

وقد رأينا عمر (رضي الله عنه) يرسل إلى حسان ، ويحكمه ، وينزل

عند رأيه ، ورأينا بني العجلان يطلبون إلى عمر أن يحكم حسان فيما هجوا

به من شعر النجاشي مما يدل على مكانة حسان وعلو منزلته في هذا الفن.

وبجانب هؤلاء نرى مجموعة من الآراء النقدية لأبي بكر الصديق^(٣)،

والإمام علي^(٤)، والحطيئة^(٥)، ولبيد^(٦)، والنابغة الجعدي^(٧)، وعمرو بن

(١) مرزءون: كرام. بهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير.

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٥٧، ٥٨.

(٣) انظر: العمدة ١ / ٩٥.

(٤) انظر: المرجع السابق ١ / ٤١، ٤٢.

(٥) انظر: العمدة ١ / ٩٦-٩٧، ٢ / ١٣٩، والشعر والشعراء، ص ٢٠١.

(٦) انظر: العمدة ١ / ٩٥.

(٧) المرجع السابق ٢ / ١٧٥.

العاص^(١)، والحسين بن علي^(٢)، والسيدة عائشة (رضي الله عنها)^(٣)، وغيرهم مما لا يحتمل هذا المقام استقصاءه أو تناوله ، فلنكتف بما ذكر ومنتقل إلى الحديث عن طبيعة النقد في هذا العصر ، وما طرأ عليه من مقاييس دينية وخلقية .

طبيعة النقد وما طرأ عليه من مقاييس في عصر صدر الإسلام:

يمكن - بعد عرض ما مضى من نماذج - أن نخلص إلى الآتي:

١- أن الإسلام وجه الأدب والنقد وجهة دينية وخلقية ، فما وافق منهج الإسلام وتعاليمه ، وسار على هديه - يدعو للفضيلة ، وينتصر للأخلاق والمثل العليا - فهو موضع الثناء والتقدير .

أما ما يخالف تعاليم الإسلام - من الدعوة إلى الخمر والمجون ، والغزل الماجن ، والهجاء المقذع ، والمديح الزائف - فهو الساقط المستبح الذي يقول فيه رسولنا (صلى الله عليه وسلم): " لَأَنَّ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا " ^(٤).

وهذا كعب بن مالك ينشد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى

ينتهي إلى قوله:

(١) انظر: العمدة ١/ ٢٤٣ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٧٢ .

(٣) جبهة أشعار العرب ، ص ٦٩ .

(٤) انظر: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٧٢، ٧٣، والحديث سبق تحريجه .

مجالدنا عن جذمننا كل فخممة مذربة فيها القوانس تلمع^(١).

فيقول له الرسول (صلى الله عليه وسلم): أياصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم، فقال (صلى الله عليه وسلم): فهو أحسن، فقال كعب: مجالدنا عن ديننا^(٢)، فقد أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يصرفه عن العصبية القبلية إلى الحمية للدين، والذود عن حوضه؛ لأنه الأولى بالدفاع^(٣).

٢- وجه الإسلام الأدباء والنقاد إلى مراعاة السهولة والوضوح، والبعد عن التكلف والتعمر، وتجنب الغريب والحوشي، "وقضى على سجع الكهان، وبذلك ارتفعت منزلة النثر بتخليصه من مظاهر التكلف والاعتساف، وليس أدل على ذلك من إنكاره (صلى الله عليه وسلم) قول من قال: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح واستهل، ومثل ذلك دمه يطل؟ فقال (صلى الله عليه وسلم): أسجعاً كسجع الكهان^(٤)، وفي ذلك رد على من يرى أن النقد في هذا العصر لم يتناول النثر ولم يعرض له^(٥).

(١) جذمننا: أصلنا، أو أهلنا. فخممة: كتيبة عظيمة، المذربة: الماضية النافذة، ويروى المذربة: أي المتعودة على القتال الماهرة فيه.

(٢) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٠١، ١٠٢.

(٣) انظر: محاضرات في النقد الأدبي، ص ٣٩.

(٤) انظر: الأدب الإسلامي في عصره الأول، أ.د. صلاح الدين محمد عبد التواب، ص ٢٩، دار الطباعة المحمدية، ١٩٨١ م.

(٥) انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ ١ / ٢٥٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٥ م.

٣- وَسَّعَ القرآن الكريم والحديث الشريف مدارك العرب العقلية والفكرية ،
فخطا النقد إلى الأمام ، إذ اتسعت دائرته ، وصار أكثر دقة وفنية منه في العصر
الجاهلي.

ومن هذه اللمسات الفنية ما روي من تعليل عمر بن الخطاب (رضي
الله عنه) في تقديم زهير بن أبي سلمى^(١)، وما روي عن أنه (رضي الله عنه)
قال للحطيئة: إياك والهجاء المقذع ، قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال:
المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبني شعراً على مدح
لقوم وذم لمن تعاديتهم ، فقال: أنت - والله - يا أمير المؤمنين أعلم مني
بمذاهب الشعر ، ولكن حباني هؤلاء فمدحتهم ، وحرمني هؤلاء فذكرت
حرمانهم ولم أنل من أعراضهم شيئاً ، وصرفت مدحي إلى من أراده ،
ورغبت به عن كرهه وزهد فيه ، يريد بذلك قصيدته المهموزة التي يقول
فيها:

وَأَنيت العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الإناء

وهي أخبت ما صنع ، وفيها أو من أجلها قال خلف الأحمر: أشد الهجاء
أعفه وأصدقه ، وقال مرة أخرى : ما عف لفظه وصدق معناه^(٢).

ومن هذه اللمسات ما روي من توجيه الإمام علي (رضي الله عنه) إلى
وضع البيئة الزمانية والمكانية موضع الاعتبار عند النقد أو المفاضلة ، فقال:

(١) راجع: ص ٦٣ .

(٢) العمدة ١ / ١٧٠ ، ١٧١ .

” لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ونصبت لهم راية فجزوا معاً علمنا من السابق منهم ، وإذا لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، فقيل: ومن هو؟ فقال: الكندي - يريد امرأ القيس - قيل: ولم؟ قال: لأنني رأيتهم أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة^(١) .

وعلى الجملة فقد أحدث الإسلام تغييراً في مقاييسهم الأدبية والنقدية فصارت على أساس المقاييس والضوابط التي هذبها الإسلام ، وأوضحها القرآن الكريم في معانيه وألفاظه ونظمه وأسلوبه^(٢)، حيث تأثروا تأثراً كبيراً ببلاغة القرآن الكريم وهديه على حدٍّ سواء .

* * *

(١) العمدة ١ / ٤١ ، ٤٢ .

(٢) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٧٣ .

الفصل الثالث

الجدور التراثية للنقد في العصر الأموي

الجدور التراثية للنقد في العصر الأموي

عوامل ازدهار النقد:

(أ) تشجيع الخلفاء والأمراء والولاة:

تغيرت ظروف الحياة في العصر الأموي ، إذ تحولت الخلافة من خلافة راشدة يتولاها أكثر المسلمين كفاية ، وأقدرهم على القيام بتبعاتها إلى ملك عضود يتوارثه أفراد البيت الأموي تحت مسمى الخلافة.

وقد تدفقت الأموال على خلفاء هذا البيت ، وأصبح في مقدور الخليفة أن يعطي ما يشاء ، وبما أن هؤلاء الخلفاء كانوا عرباً خلصاً يحسنون تذوق الشعر ونقده ، ويعرفون له دوره ومكانه – فقد عملوا على تقريب الشعراء ، وأحسنوا إليهم ، فالتاريخ الأدبي يمدنا بأسماء عدد كبير من الشعراء الذين كانوا منقطعين أو كالمقطعين إلى بني أمية من أمثال: الأخطل التغلبي ، وعبد الله بن الزبير الأسدي ، والمتوكل الليثي ، وعبد الله ابن همام السلولي ، وأبي العباس الأعمى ، وأبي صخر الهذلي ، ونصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، وعدي بن الرقاع وغيرهم^(١).

وقد تبع هذه الحركة الأدبية حركة نقدية قوية ، وكان من بين خلفاء بني أمية وولاتهم من يتصدى لنقد الشعر والحكم بين الشعراء ، من أمثال :

(١) انظر: العصر الإسلامي ، د/ شوقي ضيف ، ص ٣٣٦ وما بعدها، واتجاهات الشعر في العصر

الأموي ، د/ صلاح الدين الهادي ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

عبد الملك بن مروان ، وسليمان بن عبد الملك ، والحجاج الثقفي وغيرهم .
ومن أمثلة ذلك :

١- اجتمع جرير والفرزدق والأخطل في مجلس عبد الملك بن مروان ، فأحضر عبد الملك كيسًا فيه خمسمائة دينار ، وقال: ليقبل كل منكم بيتًا في مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فقال الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربي وفي القطران للجربي شفاء
فقال الأخطل^(١):

فإن تك زق زاملة فإني أنا الطاعون ليس له دواء^(٢)
فقال جرير^(٣):

أنا الموت الذي آتي عليكم فليس لهارب مني نجاء
فقال عبد الملك لجرير: خذ الكيس ، فلعمري إن الموت يأتي على كل شيء^(٤).

(١) ديوان الأخطل، ص ١٩، شرح: مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط: ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) الزق: السقاء أو الوعاء من الجلد، الزاملة: مؤنث الزامل ، وهو ما يحمل عليه من الإبل وغيرها.

(٣) ديوان جرير، ص ١٤، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ويروى للأخطل في ديوانه ص ١٩ بلفظ: أنا الموت الذي حُدِّثت عنه فليس لهارب منه...

(٤) اتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ٦٩، ولم يرد بيت الفرزدق في ديوانه ، وذكر منسوبًا له في بدائع البدائه لعلي ابن ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي ، ص ١١، طبعة مصر، ١٨٦١م، في حين نسبته كثير من المصادر لشاعر يسمى: القطران.

٢- دخل جرير على عبد الملك بن مروان ، فأنشده قوله^(١) :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية همَّ صحبتك بالروح

فقال عبد الملك: بل فؤادك^(٢). ولما انتهى جرير إلى قوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

جعل عبد الملك يقول: نحن كذلك ، ردّها عليّ ، فأخذ جرير يرددّها،
والخليفة يطرب لذلك ويقول: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو
ليسكت ، وأمر له بمائة من الإبل^(٣).

٣- دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك - وسليمان ولي عهد -

فوجد عنده نصيباً مولى عبد العزيز بن مروان ، فقال سليمان: أنشدنا يا أبا
فراس - وأراد أن ينشده بعض ما امتدحه به - فأنشده قوله^(٤):

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب

سروا يركبون الريح وهي تلفهم إلى شعب الأكوار ذات الحقائق

إذا استوضحوا ناراً يقولون ليّتها - وقد حصرت أيديهم - نار غالب

فغضب سليمان ، وقال لنصيب : أنشد مولاك يا نصيب ، فأنشده قوله^(٥):

(١) ديوان جرير ، ص ٧٦.

(٢) لم يخف على عبد الملك أن الشاعر يخاطب نفسه ، ولكنه استقبح مثل هذا الاستهلال.

(٣) انظر: ذيل الأمالي ، ص ٥٠ ، واتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٦٤.

(٤) ديوان الفرزدق ، ص ٣٠ ، شرحه وقدم له : علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: ١،

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥) نقد الشعر، ص ٢٦ ، والأمالي للقيلي ١/ ٩٤ ، والعمدة ١/ ٧٤.

أقول لركب قافلين لقيتهم قفا ذات أوشال ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودان طالب
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب
فقال سليمان: أحسنت^(١)، ثم قال: يا غلام ، أعط نصيبًا خمسمائة دينار،
وألحق الفرزدق بنار أبيه^(٢).

وكتب الأدب مليئة بالناذج التي تدل - بوضوح - على أن الخلفاء
والأمراء والولاة في هذا العصر كانوا يتعهدون الشعر والشعراء بالعناية
والاهتمام ، وأن مجالسهم قد ازدانت بالأدب والأدباء ، مما كان له أثر كبير في
ازدهار الأدب والنقد على حد سواء^(٣).

(ب) نشأة الأحزاب وتعدد الفرق:

كان للأحزاب والفرق التي نشأت بزوغ شمس بني أمية ، ثم كثرت
وتعددت إبان حكمهم أثر كبير في نهضة الأدب والنقد ؛ فقد كان الشعر
وقود الفتن التي اشتعلت ، ولسان الأحزاب التي تصارعت ، " وكان لكل
فرقة أو طائفة شعراؤها وخطبائها الذين ينتصرون لها ، ويدافعون عنها،
ويكيلون لأعدائها من الطوائف الأخرى الهجاء المر والمثالب الفاحشة "^(٤)،

(١) الشعر والشعراء، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٢) العمدة ١ / ٧٣، ٧٤.

(٣) انظر: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص ٨٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٨٢.

فإذا ما دارت الدائرة على حزب من الأحزاب فإن شعراءه كانوا ينقسمون
قسمين:

قسم يظل وقيًا لحزبه ، يبكي على أطلاله ، محاولاً أو متمنياً استعادة
مجده، والقسم الآخر يتحول إلى الحزب الحاكم رغبة أو رهبة على نحو ما
كان من عبد الله بن قيس الرقيات شاعر الزيريين الذي كان منقطعاً إلى
مصعب بن الزبير .

فلما قتل مصعب شفعوا لابن قيس عند عبد الملك بن مروان ، فلما أنشده قوله^(١):

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

قال عبد الملك: ألي تقول هذا؟ ولمصعب تقول^(٢):

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه جبوت ولا به كبرياء

فأعطيته المدح بكشف الغم وجماء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر
فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبیني الذي هو كالذهب في النضارة^(٣). ووجه
عتب عبد الملك - كما قال قدامة - إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به

(١) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، ص ٥، شرح وتحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر،
بيروت.

(٢) المرجع السابق، ص ٩١.

(٣) انظر: الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص ١٠٤، حققه: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو
الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ، ونصوص نقدية، ص ١٦٨، ١٦٩.

عن بعض الفضائل النفسية - التي هي: العقل والعفة والعدل والشجاعة - إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة ، وهذا عيب من عيوب المديح^(١).

ومن الحق والإنصاف أن نقول: "إن ابن قيس الرقيات كان في مدحيته منطقيًا مع نفسه ومبدئه ، فتجربته شخصية لم يفتعلها، ولم يشأ أن يشوه طبيعتها"^(٢).

وقد حدث نحو ذلك بين عبد الملك وكثير عزة^(٣). فكان لذلك كله أثر واضح في إذكاء الحركة الأدبية والنقدية.

(ج) مجالس الأدب والنقد:

لم تكن المجالس الأدبية والنقدية في العصر الأموي محصورة في قصور الخلفاء والولاة ، فقد انتشرت في الشام والعراق والحجاز ، واشتهر من بين هذه المجالس مجلس سكينه بنت الحسين ، ومجلس عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب ، كما كان للشعراء مجالسهم التي يتذكرون فيها الأشعار، "ويعلق بعضهم على شعر بعض تعليقات تتجاوز المعاني إلى نقد الصور والتشبيهات"^(٤). وقد أثمرت هذه المجالس ثروة نقدية هائلة تزخر بها كتب الأدب والنقد ، منها :

(١) نقد الشعر لقدماء بن جعفر، ص ١٨٤.

(٢) اتجاهات النقد الأدبي العربي، ص ١٦٢.

(٣) راجع: الموشح، ص ١٩٥ - ١٩٧.

(٤) معالم على طريق النقد القديم، ص ٦٧، ٩٨.

١- كانت عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب تجلس للناس ، فبينما هي جالسة إذ قيل لها: العذري - جميل بن معمر - بالباب، فقالت: ائذنوا له ، فدخل ، فقالت له: أأنت القائل^(١):

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

إنما تطلبها عند ذهاب عقلك، لولا أبيات بلغتني عنك ما أذنت لك، هي^(٢):

علقت الهوى منها وليدًا فلم يزل إلى اليوم ينمي حبها ويزيد

فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبديد

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود

ثم قيل لها: هذا كثير عزة والأحوص بالباب ، فقالت: ائذنوا لها ، ثم

أقبلت على الأحوص فقالت : وأما أنت يا أحوص فأقل العرب وفاء في

قولك^(٣):

من عاشقين تراسلا فتواعدا ليلاً إذا نجم الثريا حلقا

بعثا أمامهما مخافة رقبة عبداً ففارق عنها ما أشفقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضع الصباح تفرقا

(١) ديوان جميل بثينة ، ص ٩٨ ، دار صادر ، بيروت .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ .

(٣) انظر: ديوان الأحوص الأنصاري ، ص ١٤٨ ، جمع وترتيب : د/ إبراهيم السامرائي ، مكتبة

الأندلس ، بغداد ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

ألا قلت: تعانقا ، أما والله لولا بيت قلته ما أذنت لك، وهو^(١):
كم من دني لها قد صرت أتبعه ولو سلا القلب عنها صار لي تبعا
وأما كثير فأمرت جوارمها أن يكتفنه ، وقالت له: يا فاسق، أنت القائل^(٢):
إن زم أجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين
أين الحزن إلا عند هذا؟! خرّقتن ثوبه يا جوارمي، فقال: جعلني الله فداءك،
إني قد أعقت بما هو أحسن من هذا، ثم أنشدها^(٣):
أأزمت بينا عاجلاً وتركتني كئيباً سقيماً جالساً أتلدد^(٤)
وبين التراقي واللهاة حرارة مكان الشجا ما تطمئن فتبرد
فقلت: خلين عنه يا جوارمي، وأمرت له بمائة دينار وحلة يمانية، فقبضها
وانصرف^(٥).

٢- جاء جرير بن عطية بن الخطمي إلى باب سكينه بنت الحسين
يستأذن في الدخول عليها ، فلم تأذن له ، وأرسلت إليه جارية تقول له:
سيدتي تقول لك: أنت القائل^(٦):

(١) انظر: ديوان الأحوص الأنصاري ، ص ١٣٣ .

(٢) ديوان كثير عزة، ص ١٧٠، جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ -
١٩٧١م.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٤٣٩، ٤٣٧ .

(٤) أتلدد: أتلفت يميناً وشمالاً متحيراً.

(٥) الموشح، ص ٢١٤، ٢١٥ بتصرف.

(٦) ديوان جرير، ص ٤٥٢ .

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
قال: نعم، فقالت: تقول لك مولاتي: ما أحسنت ولا سلكت طريقة
الشعراء. أيكون وقت لا تصلح فيه زيارة الحبيب؟ ألا رحبت وقربت
وقلت: فادخلي بسلام^(١)، وفي رواية: هلا أخذت بيديها فرحبت بها، وأدريت
مجلسها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت عفيف ، وفيك ضعف^(٢).

٣- قال السائب بن ذكوان راوية كثير، قال لي كثير عزة يوماً: اذهب بنا إلى
ابن أبي عتيق نتحدث عنده، فذهبنا إليه فاستنشدته ابن أبي عتيق فأنشدته^(٣):
أبائنة سعدى نعم ستين كما انبت من جبل القرين قرين
حتى بلغ قوله:

فأخلفن ميعادي وخن أمانتي وليس لمن خان الأمانة دين
فقال ابن أبي عتيق: يا بن أبي جمعة ، وعلى الديانة تبعتها؟ فأنشدته كثير^(٤):
كذبن صفاء الود يوم محله وأدركني من وعدهن رهون
فقال ابن أبي عتيق: ذاك - والله - أصلح هن ، وأدعى للقلوب إليهن ،
كان عبد الله بن قيس الرقيات أعلم بهن منك ، وأوضع للصواب
مواضعه فيهن، حيث يقول^(٥):

(١) الموشح، ص ٢٢٢.

(٢) الأغاني ٥ / ٥٠.

(٣) ديوان كثير، ص ١٧٢.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٥) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، ص ١٦٣.

حبذا الدل والغنج والتي في طرفها دعج
والتي إن حدثت كذبت والتي في وصلها خلج^(١)
فسكن كثير واستحلى هذا الشعر^(٢).

(د) الأسواق الأدبية:

أدت الأسواق الأدبية التي كانت تعقد في العصرين الجاهلي والإسلامي دورًا هامًا في النشاط الأدبي والعمل على إجادته ، والبحث عن الوسائل التي ترقى بها الأعمال الأدبية^(٣).

وقد استمر نشاط الأسواق الأدبية في العصر الأموي، وازداد عمقًا وشمولًا واتساعًا، فقامت سوق المربد بالبصرة ، وسوق الكناسة بالكوفة بدور فعال في نهضة الأدب والنقد، وكانا ميدانًا فسيحًا يلتقي فيه الأدباء والنقاد^(٤)، مما أثمر الكثير من الملاحظات النقدية ، منها:

١- قال الأصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: لقيت الفرزدق في المربد ، فقلت: يا أبا فراس، أحدثت شيئًا ، فقال الفرزدق: خذ، ثم أنشدني^(٥):

(١) خلج: اضطراب.

(٢) الموشح، ص ٢٠٢، وانظر: اتجاهات النقد الأدبي، ص ٨٤، ٨٥.

(٣) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص ٨٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص ٨٨.

(٥) الموشح، ص ١٥٤.

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس^(١)
قال أبو عمرو: فقلت: سبحان الله! هذا للمتلمس. فقال: اكنمها
فلضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبل^(٢).

٢- كان ذو الرمة ينشد إحدى قصائده بالكناسة ، فلما بلغ قوله^(٣):

إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح^(٤)
صاح به ابن شبرمة : يا ذا الرمة ، أراه قد برح ، فأخذ ذو الرمة يفكر ،
ثم عاد فأنشد:

إذا غير النأي المحبين لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح
قال غيلان بن الحكم - راوي الخبر - : فذهبت إلى أبي الحكم بن
البحري بن المختار فأخبرته الخبر، فقال: أخطأ ابن شبرمة حيث أنكر عليه،
وأخطأ ذو الرمة حيث رجع إلى قوله ، إنما هذا كقوله تعالى: { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي
بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا... }^(٥)، أي: لم يرها ولم يكد^(٦). وهذا ما

(١) مستعمل قذف: طريق بعيد.

(٢) الموشح للمرزباني ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) ديوان ذي الرمة ٢ / ١٩٢ ، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، جدة، ط ١، ١٤٠٢ هـ -
١٩٨٢ م.

(٤) رسيس الهوى: أثره وبقيته.

(٥) سورة النور: آية ٤٠ .

(٦) الموشح للمرزباني ، ص ٢٣٥ .

يؤكد المحققون ، إذ يرون أن الذي يقتضيه "لم يكد" ، و"ما كاد يفعل" هو أن الفعل لم يكن من أصله ، ولا قارب أن يكون، ولا ظن أنه يكون^(١).

(و) ازدهار فن النقائض:

كان لشيوع وازدهار فن النقائض في العصر الأموي أثر كبير في نهضة النقد، فإنها تقوم على مراجعة ما قيل من الشعر في معنى من المعاني ثم نقضه بشعر آخر أبلغ وأسير^(٢)، مما يجعل المنشئ يفكر وينقح كثيرًا قبل أن يخرج شعره إلى الناس ، حتى لا يتعرض لشيء من النقض ، يدعم ذلك ما روي من أن الفرزدق أخذته الحمية في مجلس عبد الملك فقال: النوار طالق ثلاثًا إن لم أقل شعرًا لا يستطيع هذا - وأشار إلى جرير - أن ينقضه أبدًا ، ولا يجد في الزيادة عليه مذهبًا ، قال عبد الملك: وما هو؟ قال الفرزدق^(٣):

فإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله؟

وما أحديا ابن الأنان بوائل من الموت إن الموت لا شك نائله^(٤)

فأطرق جرير قليلا ، ثم قال: أم حزرة طالق ثلاثًا إن لم أكن نقضته وزدت عليه، فقال عبد الملك: هات ، فوالله لقد طلق أحدكم لا محالة ،

فأنشد جرير^(٥):

(١) انظر: دلائل الإعجاز، ص ٢٧٥، وروح المعاني للألوسي، ص ١٨٠، ١٨٣.

(٢) انظر: محاضرات في النقد الأدبي، ص ٤٢.

(٣) انظر: ديوان الفرزدق، ص ٥٠٤.

(٤) بوائل: بناج.

(٥) انظر: ديوان جرير، ص ٣٨٨.

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس بكفيك يا ابن القين هل أنت نائلة؟
أنا الدهر يُفني الموت والدهر خالد فجنني بمثل الدهر شيئاً يطاوله
فقال عبد الملك: فضلك - والله - يا أبا فراس وطلق عليك ، فبانت النوار
من الفرزدق ، وندم عليها ندمًا شديدًا^(١).

وقد أكثر النقاد حديثهم عن النقائص وشعرائها ، كل يريد أن يدي
بدلوه في هذا الفن الشعري الذي فشا أمره وذاع صيته ، وكان الشعراء
أنفسهم يشاركون في هذا النقد ، فكان جرير يقول: النصراني - يريد
الأخطل - أنعتنا للخمر والحمر^(٢)، وأمدحنا للملوك ، وأنا مدينة الشعر.
وسئل الأخطل: أيكم أشعر؟ فقال: أنا أمدحهم للملوك وأنعتهم للخمر
والحمر، وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا ، وأما الفرزدق فأفخرنا ، وقال
مروان بن أبي حفصة^(٣):

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلوا القريض ومرة لجرير
وكان الفرزدق يقول : ما أحوج ابن المراغة مع عفته إلى صلابة شعري ،
وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون^(٤)، وسمع الراعي النميري إنساناً يتغنى
- على قعود له - بقول جرير^(٥):

(١) انظر: الأغاني ٣٢ / ١٩ ، واتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٦٩ .

(٢) الحمر (بضم الحاء فسكون الميم): النساء .

(٣) الشعر والشعراء ، ص ٤٥٩ .

(٤) لما ترون: أي لما يرون من هيامه بهن ، وكان الفرزدق زير نساء .

(٥) ديوان جرير ، ص ٤٤٦ .

وعاؤ عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذا تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندواني إذا هز صمما
فقال : لمن هذا؟ قيل : لجرير ، فقال الراعي : لعنة الله على من يلومني
أن يغلبني مثل هذا^(١).

(و) نشأة بعض العلوم العربية:

وضعت في عصر بني أمية نواة بعض العلوم العربية كعلمي النحو
واللغة^(٢)، ونال علم النحو اهتماماً خاصاً ، إذ كانوا يخشون أن يتسرب
اللحن إلى لغة القرآن ، " فهب العلماء لا يلوون على شيء منكمشين في
تدوينه ، فكان يسير بخطى فسيحة تبشر بالأمل القوي العاجل حتى نضج
ودنا جناه ، فتم وضعه في العصر الأموي ، دون سائر العلوم اللسانية "^(٣).
وقد أخذ بعض النحاة يتعقبون الشعراء ، ويبرزون ما وقعوا فيه من
مخالفات لغوية ، فنشأ لون جديد من ألوان النقد هو النقد اللغوي ، وسيأتي
الحديث عنه.

اتجاهات النقد في العصر الأموي:

تعددت اتجاهات النقد في هذا العصر غير أنها - في مجملتها - ترجع إلى
اتجاهين أساسيين ، هما: الاتجاه الأدبي ، والاتجاه اللغوي.

(١) انظر: الشعر والشعراء ، ص ٣١١.

(٢) انظر: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٩٤.

(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للشيخ محمد الطنطاوي، ص ٢٥، دار المعارف، ط ٢، ١٩٩٥م.

أولاً: الاتجاه الأدبي:

وقد تعددت جوانب هذا الاتجاه ، فشملت الاستحسان والاستهجان، والحكم بين الشعراء ، والموازنة بين المعاني ، ونقد المذهب الشعري ، وغير ذلك من اللمسات النقدية والفنية ، وفيما يلي عرض لبعض نماذج هذا الاتجاه:

(أ) **فمن قبيل الاستحسان** : ما روي أن عبد الملك بن مروان كان يقول : ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد ، لقوله (١) :

وإني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إناءك واحد (٢)
أتهزأ مني أن سممت وأن ترى بجسمي شحوب الحق والحق جاهد (٣)
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسوقراح الماء والماء بارد (٤)

ومن قبيل الاستهجان ما روي عن أبي عبيدة أنه قال : أنشد ذو الرمة بلال بن أبي بردة قصيدة يمدحه بها ، فلما بلغ قوله (٥):

(١) الشعر والشعراء ، ص ٣١٥ ، والأغاني ٢ / ١٨٢ .

(٢) رواية الديوان ص ٢٩ ، إني بدون واو ، وعلى ذلك يكون البيت مخرومًا : إذ صارت " فعولن " في أول المصراع " عولن " بإسقاط أول الوند المجموع ، وأراد بقوله: " عافى إناءك واحد " أنه يأكل وحده .

(٣) شحوب الجسم : هزاله وتغيره ، وإضافة الشحوب إلى الحق من إضافة الشيء إلى سببه .

(٤) حسا الماء : شربه شيئًا بعد شيء . القراح : الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

(٥) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٨١٣ .

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعي بلالا^(١)

قال بلال: أعلف ناقته ، فإنه لا يحسن أن يمدح^(٢).

ومنه ما روي من أن أرطاة بن سهية دخل على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك: هل تقول اليوم شعراً؟ فقال: كيف أقول وأنا ما أشرب

ولا أطرب ولا أغضب؟ وإنما يكون الشعر على هذا ، وأنا الذي أقول^(٣):

رأيت المرء تأكله الليالي كأكل الأرض ساقطة الحديد

وما تبقي المنية حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنها ستكر حتى توفي نذرهما بأبي الوليد

ففزع عبد الملك - وكان يكنى بأبي الوليد - فقال أرطاة : لم أعنك ،

إنما عنيت نفسي، فقال عبد الملك: وأنا أيضاً^(٤).

وقد كره الحذاق أن يخاطب الملوك بمثل هذا ، إذ هو مما ينغص عليهم

أوقات لذاتهم^(٥)، وروي عن بعض الملوك أنه قال: ما لهؤلاء الشعراء قاتلهم

الله ، ربما ذكرونا شيئاً - يريد الموت - نحن أكثر ذكراً له منهم، فينغصون به

(١) صيدح : اسم ناقته.

(٢) الموشح للمرزباني ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥.

(٣) الموشح، ص ٣٠٨ ، وبيع الأبرار ونصوص الأخيار للزخشي ٢ / ٤٨٥ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت، ط: ١٤١٢ هـ.

(٤) الشعر والشعراء ، ص ٣٥٤.

(٥) هذا من الناحية الفنية ، أما من الناحية الشرعية فينبغي أن نذكره ، على أن مراعاة حال المخاطب ووقت الخطاب أمر هام على كل حال.

علينا أوقات لذتنا؟^(١).

ويروى أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام - وهو الخليفة - يريد الصلاة ، ونظر في المرأة فأعجبه جماله - وكان حسن الوجه - فقال: أنا الملك الشاب ، فتلقته إحدى حظاياها ، فقال لها! كيف ترينني؟ فتمثلت بقول موسى شهوات^(٢):

ليس فيما بد لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فان
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
فتطير بها ورجع، فحم ، فما بات إلا ميتاً تلك الليلة^(٣).

(ب) الحكم بين الشعراء :

سئل مسلمة بن عبد الملك: أي الشعارين أشعر؟ أجريير أم الفرزدق؟ فقال: إن الفرزدق يبني ، وجريير يهدم ، وليس يقوم مع الخراب شيء^(٤).
وطلب إلى الصلتان العبدي أن يحكم بين الفرزدق وجريير، فقال^(٥):
ألا إنها تحظى كليب بشعرها وبالمجد تحظى دارم والأقارع
أرى الخطفي بذ الفرزدق شعره ولكن خيراً من كليب مجاشع

(١) العمدة ٢ / ١٣٦ .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة، ٢ / ٢١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

(٣) العمدة ٢ / ١٣٦ .

(٤) الموشح للمرزباني، ص ١٦١ .

(٥) الشعر والشعراء، ص ٣٣٨، ٣٣٩ .

فيا شاعرًا لا شاعر اليوم مثله جرير ولكن في كليب تواضع
جرير أشد الشعارين شكيمة ولكن علتة الباذخات الفوارع
ويرفع من شعر الفرزدق أنه له باذخ لذي الخسيصة رافع
وقد يحمد السيف الددان^(١) بجفنه وتلقاه رثا غمده وهو قاطع
يناشدني النصر الفرزدق بعدما ألت عليه من جرير صواعق
فقلت له إني ونصرك كالذي يثبت أنفًا كشمته الجوادع
وقالت كليب قد شرفنا عليكم فقلت لها سدت عليك المطالع
"فالصلتان العبدى تنازعه عاملان : عامل التبريز في الشعر الذي
يعطفه على جرير ، ويصده عن الفرزدق ، وعامل الجاه الاجتماعي الذي
يجعله يرفع من شعر الفرزدق ويقصي جريرًا .
وبتعبير آخر: نال جرير مكانة اجتماعية بشعره ، في حين ارتفع شأن
الفرزدق في الشعر بمكانته الاجتماعية"^(٢) .

(ج) الموازنة بين المعاني:

١- أنشد كثير عزة ابن أبي عتيق قصيدته التي يقول فيها^(٣):
ولست براضٍ من خليلي بنائل قليل ولا راضٍ له بقليل

(١) الددان: الكل ، الذي لا يقطع .

(٢) اتجاهات النقد الأدبي ، ص ٩٨ .

(٣) ديوان كثير ، ص ١١٢ ، وانظر: الموشح للمرزياني ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

فقال ابن أبي عتيق: هذا كلام مكافئ وليس بعاشق ، القرشيان أصدق منك وأقنع: ابن أبي ربيعة ، حيث يقول :

فعدي نائلا وإن لم تنيلي إنما يقنع المحب الرجاء
وحيث يقول:

ليت حظي كطرفه العين منها وكثير منها القليل المهنا
وابن قيس الرقيات حيث يقول^(١):

رقي بعمرك لا تهجرينا وميننا المني ثم أمطلينا
عدينا في غد ما شئت إنا نحب - ولو مطلت - الواعدينا
فإما تنجزني عدي وإما نعيش بما نؤمل منك حيناً

وقد وفق ابن أبي عتيق في نقده ؛ لأن المحب يقنع بالقليل ، ولو كان نظرة خاطفة ، أو طيفاً زائراً ، أو وعداً ممطولا ، أو أملاً مبدداً ، كما قال جميل^(٢):

أقلب طرفي في السماء لعله يوافق طرفي طرفها حين تنظر
وكتوله - أيضاً - :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا، وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أو آخره لا نلتقي وأوائله

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ، ص ١٣٧ .

(٢) ديوان جميل ، ص ٦٣ ، ٢٥٤ ، وانظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ١٦٧ .

٢- بعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله إلى كثير ، فقالت له :

يا بن أبي جمعة ما الذي يدعوك إلى ما تقول من الشعر في عزة ،
وليست عما تصف من الحسن والجمال ، لو شئت صرفت ذلك إلى غيرها
ممن هو أولى به منها ، أنا أو مثلي ، فأنا أشرف وأوصل من عزة - وكانت
عائشة قد أرادت أن تختبر حبه لعزة - فقال (١):

إذا ما أرادت خلة أن تزيلنا أبئنا وقلنا الحاجبية أول (٢)
سنوليك عرفاً إن أردت وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوصل
لها مهل لا يستطاع دراكه وسابقة في الحب ما تتحول

فقالت عائشة: والله لقد سميتني لك خلة وما أنا لك بخلة. وعرضت

علي وصلك وما أريد ذلك وإن أردت ، ألا قلت كما قال جميل (٣):

ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اعتزال الباطل؟
ولباطل ممن أحب حديثه أشهى إليّ من البغيض الباذل
ولرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها في الحب بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر قلامه حب وصلتك أو أتتك رسائلي

(١) ديوان كثير عزة ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، والشعر والشعراء ، ص ٣٤٤ .

(٢) تزيلنا: تفرقنا .

(٣) ديوان جميل ، ص ١٠٧ مع اختلاف في ترتيب الأبيات، والشعر والشعراء ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

فقد أدركت عائشة بحاستها الأثوية أن جميلاً أصدق في حبه من كثير، فقد شغله حب صاحبه ، وملك عليه قلبه ، فلم يبق فيه مقدار قلامة لغيرها ، أما كثير فقد ضعف أمام أول اختبار ، وأسرع بعرض وصاله على أول من أومأت له ، ولم يزد على جعل صاحبه أولى من غيرها لما لها من سابقة في الحب ، وليس هذا بكلام المحب الصادق ، ومن هنا استحسنت عائشة أبيات جميل ، وفضلتها على أبيات كثير.

(د) نقد المذهب الشعري:

ومنه ما رواه الأصمعي عن عيسى بن عمر من أن ذا الرمة قال للفرزدق: مالي لا ألحق بكم معاشر الفحول؟ فقال له: لتجافيك عن المدح والهجاء ، واقتصارك على الرسوم والأطلال^(١).

وقال عبد الملك بن مروان : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل الغنوي ، وكان طفيل من أوصف الناس للخيل ، وكان يقال له في الجاهلية: المحبر ، لحسن شعره^(٢).

ووفد الأخطل على معاوية بن أبي سفيان قائلاً : إني امتدحتك بأبيات فاسمعها، فقال معاوية : إن كنت شبهتني بالحية والأسد والصقر فلا حاجة لي بها ، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء^(٣):

(١) الموشح للمرزباني ، ص ٢٢٨.

(٢) الشعر والشعراء ، ص ٣٠٠.

(٣) انظر: ديوان الخنساء ، ص ٩١، اعنتى بشرحه : حمدو طماس ، طبع دار المعرفة ، بيروت ، ط: ٢،

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

فما بلغ المهدون للناس مدحة - وإن أطنبوا - إلا الذي فيك أفضل
وما بلغت كف امرئ متناولاً من المجد إلا والذي نلت أطول
فقال الأخطل: لقد أحسنت الخنساء ، وقد قلت بيتين ما هما بدونهما ، ثم
أنشد^(١):

إذا مات مات العرف وانقطع الندى فلم يبق إلا من قليل مصدر^(٢)
وردت أكف السائلين وأمسكوا عن الدين والدنيا بحزن مجدد
فمعاوية استحسنت مسلك الخنساء ، واستجاد بيتيها ؛ لما وجد فيهما
من معاني التسامي بالمدوح ، وإعلاء أمره ، وبلوغه قمة المجد ، والأخطل
وافقه على استجادة البيتين ، وزعم أنه أعد مديحاً ليس أدون من مديح الخنساء ،
وبيتاه عند التحقيق دون بيتيها في إصابة المدح وإرضاء المدوح^(٣) ، وقد سبق
القول بأن الملوك لا تحب أن تخاطب بمثل قول الأخطل^(٤).

ودخل الفرزدق على عبد الرحمن بن أم الحكم ، فقال له عبد الرحمن :
يا أبا فراس ، دعني من شعرك الذي ليس يأتي آخره حتى ينسى أوله ، وقل
في بيتين يعلقان بالرواة ، وأنا أعطيك عطية لم يعطكها أحد قبلي ، فغدا عليه
الفرزدق وهو يقول: بيتين نال بهما عشرة آلاف درهم^(٥).

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢٧/١ ، دار الجليل ، بيروت.

(٢) المصدر: القليل المتفرق ، يقال: صرد شربه ، أي تناوله جرعات متفرقة .

(٣) اتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٦٣ .

(٤) راجع: ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) العمدة ٢/ ١٢٨ ، ١٢٩ .

ثانياً: الاتجاه اللغوي:

كان بعض النحاة في هذا العصر يتعقبون الشعراء ، يرصدون أخطاءهم ، وينبهون عليها ، وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي كثير السؤال للفرزدق ، سأله يوماً كيف تنشُد هذا البيت^(١):

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألْبَاب ما تفعل الخمر
فأنشده "فعولان" فقال له عبد الله : ما كان عليك لو قلت فعولين ، فقال
الفرزدق: لو شئت أن أسبح لسبحت ، ونهض فلم يعرفوا مراده ، فقال عبد الله:
لو قال فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ولكنه أراد أنهما تفعلان ما تفعلان
الخمر^(٢).

ثم تدرج الأمر بعبد الله إلى إعنات الفرزدق في شعره هو ، إذ عاب عليه
قوله^(٣):

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف^(٤).
فقال له: بم رفعت مجلف؟ فقال الفرزدق: بما يسوءك وينوءك ، علينا أن
نقول وعليكم أن تتأولوا^(٥).

(١) ديوان ذي الرمة ١ / ٥٧٨.

(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، ص ٥٦ ، عن الأشباه والنظائر للسيوطي : الفن السابع فن المناظرات والمجالسات ، دار الكتب العلمية ، ط: ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٣) ديوان الفرزدق ١ / ١١٧.

(٤) المسحت: الهالك أو المستأصل. والمجلف: الباقي منه بقية.

(٥) انظر: الموشح ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، والشعر الشعراء ، ص ٤٠ ، ومن قضايا اللسان العربي أ.د/ السيد رزق الطويل ١ / ٩ ، وقد خرج بعض النحاة البيت على أنه من باب العطف على المعنى ، ألا ترى أنه رفع "مجلف" على معنى بقي من المال مسحت.

وعابه في قوله^(١):

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب من نديف القطن منشور^(٢)
على عمائمنا يلقي وأرحلنا على زواحف تزجى منحها رير^(٣)
فقال: إنما هو رير بالرفع وإن رفع أقوى ، فوجد عليه الفرزدق ، وقال:
أما وجد هذا المنتفخ الخصيين لبيتي مخرجا في العربية؟ أما إني لو شئت لقلت:
على عمائمنا يلقي وأرحلنا على زواحف نزجيتها محاسير
ولكن والله لا أقوله ، ثم هجاه بقوله^(٤):
فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا
فقال عبد الله: عذره شر من ذنبه ، فقد أخطأ - أيضا - والصواب:
مولى موال^(٥).

وتعقب عيسى بن عمر النابغة في قوله^(٦):

فبت كأني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع

(١) ديوان الفرزدق ١ / ٣٦٠.

(٢) الشمال (هنا): ريح الشمال، والحاصب: الريح التي تثير الحصباء.

(٣) الزواحف (هنا): الإبل التي أعيت فجرت فراستها تزجى (بالبناء للمجهول): تساق. منحها: نقي عظامها، وقيل: إنه أول السمن في الإقبال وآخر الشحم في الهزال، رير: فاسد ذائب من الهزال.

(٤) الشعر والشعراء، ص ٤٠.

(٥) انظر: الموشح، ص ١٣٧، ١٣٩، والشعر والشعراء، ص ٤٠، والوساطة، ص ٦، ٩، ونشأة النحو، ص ٥٧، ٥٨.

(٦) ديوان المعاني ١ / ٢١٨.

فقال: أساء النابغة إنما هو "ناقعا"^(١)، يريد أنه ينبغي أن يكون منصوبًا على الحال ، وخرج ابن هشام الرفع على أنه خبر للسم ، والظرف متعلق به أو خبر ثان^(٢).

وخطأ أبو عمرو بن العلاء ذا الرمة في قوله^(٣):

حراجيج ما تنفك إلا مناخة على الخسف أو نرمي بها بلدًا قفرا^(٤).

لأن أفعال الاستمرار بمعنى الإيجاب فلا يصح الاستثناء في خبرها ؛ إذ لا يصح أن يقال: ما زال زيد إلا قائمًا^(٥).

وروى المرزباني عن عبد الله بن جعفر.. عن أبي عمرو بن العلاء قال:

كنا عند بلال بن أبي بردة ، فأنشد الفرزدق^(٦):

تريك نجوم الليل والشمس حية زحام بنات الحارث بن عباد

فقال عنبسة بن معدان^(٧): الزحام مذكر ، فقال الفرزدق: أغرب ، قال

(١) طبقات فحول الشعراء ١ / ١٦ ، نشأة النحو ، ص ١٠٤ .

(٢) مغني اللبيب ٢ / ٥٧١ شاهد رقم ٨٠٧ ، تحقيق: مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٦ ، ١٩٨٥ م .

(٣) ديوان ذي الرمة ١ / ٢١٥ .

(٤) حراجيج: طوال ضامرات من الهزال. الخسف: الجوع.

(٥) الموشح، ص ٢٣٥، ٢٣٧، ونشأة النحو، ص ١٠٤ .

(٦) ديوان الفرزدق ١ / ٢٢٧ .

(٧) هو عنبسة بن معدان الفيل، من نحاة الطبقة الأولى من طبقات البصريين (نشأة النحو، ص ٥٥).

عبد الله: والزحام له وجهان: أن يكون مصدرًا مثل الطعان والقتال من قولهم زاحمته زحامًا - فهذا مذكر كما قال عنبسة ، أو يكون جمعًا للزحمة يراد بها الجماعة المزدهمة فهذا مؤنث ، لأن الزحام هو المزاحمة كما أن الطعان هو المطاعنة ، وقول عنبسة أقوى وأعرف في الكلام^(١). فلما ضاق الفرزدق بعنبة هجاه بقوله^(٢):

لقد كان في معدان والفيل شاغل لعنبة الراوي على القصائد!

على أن هذا الجيل المبكر من علماء اللغة والنحو كان له ذوقه الأدبي الذي يشارك به في الحكم على الشعراء على أساس النظرة الشاملة في شعره^(٣)، فكان أبو عمرو بن العلاء يقدم الأعمى ويقول: مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره^(٤). ويرى أن عدي بن زيد في الشعراء مثل سهيل في الكواكب يعارضها ولا يجري مجراها^(٥)، وكان يقول: عمارة بن عقيل أحسن استواء شعر من جده جرير ، ولجرير فضله ، إلا أن جريرًا اعتد عليه بسقط في شعره وضعف، وما أصابوا العمارة سقطه واحدة في شعره^(٦).

(١) الموشح ، ص ١٤٥ .

(٢) انظر: الحيوان للجاحظ ٧ / ٥١ ، والوساطة ، ص ٩ .

(٣) انظر: معالم على طريق النقد القديم ، ص ٧٠ .

(٤) العمدة / ١ / ٩٥ .

(٥) الموشح ، ص ٩١ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

ومن يطالع المصادر الأدبية والنقدية يجد العديد من الملاحظات
النقدية لهؤلاء اللغويين حول الشعر والشعراء^(١).

* * *

(١) انظر على سبيل المثال: الموشح، ص ٦٣، ٧٥، ٩١، ٩٨. والشعر والشعراء، ص ٣١٩، والعمدة

١٣٩ / ٢١. وطبقات فحول الشعراء ١ / ٥٢.

الفصل الرابع

المبحث الأول:

**الجدور التراثية للنقد
في العصر العباسي.**

المبحث الثاني:

النقد المنهجي.

المبحث الأول

الجزور التراثية للنقد في العصر العباسي

في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة من الهجرة النبوية انتقلت الخلافة من الشام إلى العراق ، من بني أمية الذين كانت دولتهم عربية أعرابية إلى بني العباس الذين أقاموا دولتهم بمساندة الفرس وتأييدهم ، فكان طبيعياً أن يكافئهم العباسيون بتولية بعض المناصب والأمر الهامة كإمارة الأقاليم ، وقيادة الجيوش والحجابه والقضاء ، ونحو ذلك.

وظل الفرس يعملون بمكر ودهاء ، ويتسللون إلى المناصب الهامة حتى صار نفوذهم قوياً وبأسهم مخشياً ، وأحس بذلك الخليفة الرشيد فعجل بهم ، ونكل برء وسهم فيما يعرف بنكبة البرامكة^(١). ثم عاد نجمهم للظهور بعد أن ناصروا المأمون ووقفوا إلى جانبه في محاربة أخيه الأمين حتى تحقق لهم بعض ما أرادوا ، ولكن المأمون كان فطناً أريئاً فانقلب بعد مقتل أخيه على السياسة الفارسية ، وترك عاصمته مرو ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ^(٢)، غير أن النفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف ، فلما جاء المعتصم حاول السيطرة على الأمور والقضاء على نفوذ الفرس؛

(١) راجع في نكبتهم: تاريخ الطبري ٨/ ٢٨٧، وما بعدها، دار التراث العربي ، ط: ٢، ١٣٨٧هـ والعصر العباسي الأول ، ص ٢٤ ، ط: دار المعارف ، ١٩٨٦م.

(٢) راجع: تاريخ الأدب العربي ٢/ ٣٦.

فاستعان بالأتراك الذين كانوا أشد خطرًا على الدولة العربية من الفرس فكان كما قال المتنبي^(١):

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده تصيده الضرغام فيما تصيدا
أما الحياة الثقافية فقد ازدادت عمقًا واتساعًا تبعًا لتحضر العقلية العربية
ووقوفها على ثقافات الأمم الأخرى ، واطلاعها على علوم هذه الأمم
وحضارتها ، وفي ظل هذه الحياة نشطت الحركة الأدبية والنقدية نشاطًا
عظيمًا.

عوامل ازدهار النقد في هذا العصر: **(أ) تشجيع الخلفاء والأمراء:**

عمل خلفاء بني العباس على تشجيع العلماء والأدباء ، وأغدقوا عليهم
المنح والعطايا ، فقد وصل المهدي مروان بن أبي حفصة بمائة ألف درهم
على قصيدة مدحه بها^(٢)، ووصل هارون الرشيد سلم الخاسر وحده
بعشرين ألف دينار^(٣).

ولم يكن الإغداق على العلماء والشعراء والمترجمين قصرًا على الخلفاء
وحدهم فقد نافسهم فيه الوزراء والأمراء وأصحاب الشرف والجاه مما
أثرى الحياة الثقافية في هذا العصر^(٤).

(١) ديوان المتنبي: شرح البرقوقى ٢/ ١٠، دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢) انظر: الأغاني ٩/ ٤٢.

(٣) انظر: المرجع السابق ٢١/ ٧٧.

(٤) راجع: العصر العباسي الأول، ص ٤٦، وما بعدها، وفي الشعر العباسي: تطوره وقيمه الفنية،
ص ١٧، د/ محمد أبو الأنوار، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

وكان لذلك كله أثر بالغ في حياة الأدباء والشعراء ، الذين وجدوا أنفسهم مدفوعين إلى التفاعل مع الحياة الجديدة ، فوفد كثير منهم على الخلفاء والوزراء ، يدفعهم إلى ذلك طلب المال والثراء ، أو الشهرة وحب الظهور ، حيث كانت قصور الخلافة مفتاحاً لذلك وميداناً فسيحاً له .

وفي هذه القصور نشأت حركة أدبية ونقدية شارك فيها الخلفاء أنفسهم ، ومن ذلك:

١- اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النمري في أمير المؤمنين الرشيد^(١):

إن المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس ينتفع^(٢)
إن أحلف الغيث لم تخلف أنامله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع
فليدخل ؛ فقال محمد بن وهب ، فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
يحكي أفاعيله في كل نائلة الغيث والليث والصمصامة الذكر

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، لأبي الفرج النهرواني ، ص ٤٠٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط: ١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
(٢) في هذا البيت مبالغة وغلو في المديح .

فأمر بإدخاله وأحسن صلته (١).

٢- دخل العماني (٢) - محمد بن ذؤيب الفقيمي - على الخليفة هارون الرشيد، فأنشده أرجوزة يقول فيها:

قل للإمام المقتدي بأمه (٣)
ما قاسم دون مدى ابن أمه
فقد رضينا فقم فسمه

فقال الرشيد: ما رضيت أن أسميه وأنا قاعد حتى أقوم على رجلي، فقال له: يا أمير المؤمنين ، ما أردت قيام جسم لكن قيام عزم ، فأمر الرشيد بإحضار ولده القاسم ، ومر العماني في إنشاده ، فلما فرغ قال الرشيد للقاسم: أما جائزة هذا الشيخ فعليك ، وقد سألنا أن نوليك العهد فأجبناه (٤).

٣- مدح ابن هرمة (٥) أبا جعفر المنصور فأمر له بألفي درهم ، فاستقلها ،

(١) العمدة ٢ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) لم يكن العماني من أهل عمان - إنما هو من بني نهشل بن درام من بني فقيم - وقيل له: العماني، لأن دكيناً الراجز نظر إليه وهو يسقي الإبل ويرتجز، فرآه مصفراً ضريباً يشبه أهل عمان، فقال: من هذا العماني؟، فعرف بهذا اللقب. (انظر: طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٠٩، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط ٣، دار المعارف. والشعر والشعراء ص ٥١١).

(٣) أمه (بفتح الهمزة وتشديد الميم): قصده، والمراد: نهجه وسيرته.

(٤) العمدة ١ / ٨٥ .

(٥) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة القرشي أحد بني قيس بن الحارث بن فهر، قال الأصبمعي: ختم الشعراء بابن هرمة فإنه مدح ملوك بني مروان وبقي إلى آخر أيام المنصور. (طبقات الشعراء لابن المعتز، ص ٢٠، وانظر: الشعر والشعراء ٢ / ٧٥٣، والأغاني ٤ / ١٠١).

وبلغ ذلك أبا جعفر فغضب ، وقال: أما يرضى أن حقنت دمه وقد استوجب أن أقتله؟ ورددت عليه ماله، وقد استحق تلفه؟ وأقررتة وقد استاهل الطرد؟ وقربته وهو حقيق بالبعد ، أو ليس هو القائل في عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك^(١):

إذا قيل من عند ريب الزمان لمقتر فهـر ومحتاجها^(٢)
ومن يعجل الخيل يوم الوغاء بإجامها قبل إسراجها^(٣)
أشارت نساء بني مالك إليك به دون أزواجها
ثم أحضر ابن هرمة فقال له المنصور: يا بن اللخناء ، أأنت القائل
وأنشده الأبيات ، فقال: يا أمير المؤمنين ، فإني قلت فيك أحسن من هذا ،
فقال: هاته فأنشده ابن هرمة^(٤):

إذا قيل: أي فتى تعلمون أهش إلى الطعن بالذابل^(٥)

(١) العفو والاعتذار للرقام البصري ١ / ١٩٤ ، ١٩٥ ، حققه: عبد القدوس أبو صالح ، دار البشير، ط: ٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، وشعر إبراهيم بن هرمة ، ص ٨٠ ، تحقيق : محمد نفاع ، وحسين عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٢) المقتر: الذي ضاق عيشه.

(٣) الإجام : وضع اللجام في فم الفرس ، والإسراج : وضع السرج على ظهره ، وذلك كناية عن الإسراع.

(٤) العفو والاعتذار ١ / ١٩٥ ، وشعر إبراهيم بن هرمة ، ص ١٧٤ .

(٥) الذابل: الرمح الدقيق.

وأضرب للقرن يوم الوغى وأطعم في الزمن الماحل^(١)

أشارت إليك أكف العباد إشارة غرقى إلى الساحل

فقال المنصور: أما هذا فمسترق من ذلك ، وأما نحن فلا نكافئ إلا

بالتي هي أحسن^(٢).

٤- قال النضر بن شميل المازني : كنت أدخل على المأمون في سمره ،
فدخلت عليه ذات ليلة ، فأجرينا الحديث إلى أن أخذ المأمون في ذكر
النساء ، فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس ، قال:
قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها
وجمالها كان فيها سداد من عوز" ، فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم ،
حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)
أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها
وجمالها كان فيها سداد من عوز ، قال : وكان المأمون متكئاً فاستوى
جالسًا ، فقال: يا نضر كيف قلت سداد؟ قلت: يا أمير المؤمنين ، السداد
هنا لحن ، قال: ويحك أتلهنني؟ قلت: إنما لحن هشيم - وكان لحنة -
فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال فما الفرق بينهما؟ قلت: السداد (بفتح السين)
القصد في الدين والسبيل والسداد (بكسر السين): البلغة ، وكل ما سدوت

(١) الماحل، الشديد أو المجذب ، والمحل: انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلاً. أرض محل ، أي: لا

مرعى بها ، ورجل محل ، أي: لا ينتفع به.

(٢) العفو والاعتذار ١ / ١٩٦ .

به شيئاً فهو سداد ، قال: وتعرف العرب هذا؟ قلت : نعم ، العرجي يقول^(١):

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
فقال المأمون : قبح الله من لا أدب له ، ثم أطرق ملياً ، ثم سأله عن
أخلب بيت قالته العرب ، وعن أنصف بيت ، وعن أقنع بيت ، والنضر
يجيب بما يستحسنه المأمون ، فأخذ المأمون القرطاس وكتب له كتاباً ، وقال
لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل ، يقول النضر: فأتيت الفضل
بالكتاب ، فقال : يا نضر إن أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم ، فما
كان السبب؟ فأخبرته ، ولم أكذبه ، فقال لحنّت أمير المؤمنين؟ فقلت: كلا.
إنما لحن هشيم - وكان لحانة - فتبع أمير المؤمنين لفظه ، وقد تتبع الفقهاء،
فأمر لي الفضل بثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف استفاده مني^(٢).

(ب) الصراعات السياسية:

لم تسلم الدولة العباسية من مناوئة الثوّار والخارجين ، فقد تعرضت
لثورات عديدة كدرت صفوها في كثير من الأوقات ، وكان العلويون عدوّاً
لدوداً لهذه الدولة يتهددها ويتحين الفرصة للانقضاض عليها ، ولم يكد
العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة حتى أخذ العلويون يشيعون في

(١) الشعر والشعراء ، ص ٥٦٠ .

(٢) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري / ١ / ١٠-١٢ بتصرف.

الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبناء علي ابن عمه^(١).
وقد توالى ثورات العلويين وظلوا شوكة قوية في ظهر الدولة العباسية حتى أسسوا الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم استولوا على مصر والشام^(٢).

وقد كان لهذا الصراع السياسي الدامي بين العباسيين والعلويين في أوائل هذا العصر أثر كبير في نهضة الشعر وقوته ، فقد وقف بجانب العباسيين فريق كبير من الشعراء يدافعون عنهم ، وينكرون على العلويين حقهم في الخلافة ، وقد كثر هؤلاء كثرة فائقة بما أغدق عليهم الخلفاء من بذل وعطاء ، أو أخافوهم الذل والهوان ، في حين انتصر للعلويين الثائرين ثقيفٌ من الشعراء يلهبون حماسهم ، ويشبتون حقهم في الخلافة ، ويردون على العباسيين حججهم ودعواهم مما أثمر ثروة عظيمة من الشعر والنقد^(٣).

ولم يكن العلويون هم العدو الأوحى للدولة العباسية ، فقد كان الفرس يشكلون خطرًا كبيرًا لا يقل عن خطر العلويين ، حيث توالى ثوراتهم بعد مقتل أبي مسلم الخراساني ، وكانت ثورات بابك الخرمي التي

(١) انظر: العصر العباسي الأول ، ص ٢٦ .

(٢) انظر: عصر الدول والإمارات (مصر - الشام) ، ص ٢٢-٢٣ ، دار المعارف .

(٣) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ١٠١ .

اندلعت في أذربيجان سنة ٢٠١ هـ من أعنف الثورات التي هبت في وجه الدولة العباسية^(١).

وهناك أعداء آخرون كانوا يثورون على الدولة بين الحين والحين كتلك البقية التي بقيت من الخوارج ، وإن كانت شوكتهم ضعفت في هذا العصر نظرًا لكثرة ما تلقوه من ضربات في العصر الأموي^(٢).

على أننا لا ننسى الصراع الدامي بين الأمويين والعباسيين ، والذي انتهى باستيلاء بني العباس على مقاليد الحكم ، لكن المعارك الأدبية لم تنته بانتهاء المعارك السياسية ؛ بل ظلت آثارها ممتدة في العصر العباسي ، وكانت واضحة أشد الوضوح في أوائل العصر العباسي الأول.

وقد انقسم شعراء الأمويين بعد زوال دولتهم قسمين:

أحدهما: ظل وقيًا لأمويته مدافعًا عنها ، يبكي أطلالها، ويعيش على ذكرياتها ، ومن هؤلاء أبو العباس الأعمى .

والآخر: تحوّل إلى ساحة العباسيين خوفًا من نكاهم ، أو حرصًا على قواهم ، ومن هؤلاء أبو نخيلة الراجز وابن هرمة وغيرهما .

كما أن الصراعات التي دارت بين العباسيين أنفسهم كانت ذات أثر واضح في إذكاء جذوة الشعر، فحين احتدم الصراع بين الأمين والمأمون

(١) راجع: تاريخ الطبري ٨ / ٥٥٦ ، و ٩ / ١٣ ، ٢٣ والعصر العباسي الأول ، ص ٤١ .

(٢) انظر: العصر العباسي الأول ، ص ٣٢ - ٣٣ .

كان لكل منهما شعراؤه، وكان ابن البواب^(١) من شعراء الأمين ، فلما تمكن المأمون من القضاء على أخيه الأمين وفد عليه ابن البواب لينشده ، فقال المأمون: يا عدو الله ألسنت القائل^(٢):

أعيني جودا وابكيا لي محمداً ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا غريباً مطردا
فقال: يا أمير المؤمنين، بل أنا الذي أقول فيك:

أيخل فرد الحسن فرد صفاته علي وقد أفردته بهوى فرد
رأى الله عبد الله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبد
أعيذك أن تقسو عليّ وقد ترى تقطع أنفاسي عليك من الوجد
ألا إنما المأمون للناس عصمة مميزة بين الضلالة والرشد

فقال المأمون : واحدة بواحدة ، ولم يصله بشيء^(٣).

(ج) نشاط البيئة اللغوية:

إن الحركة اللغوية التي نشأت في العصر الأموي قد نمت وازدهرت وآتت أكلها في العصر العباسي ، فقد كثر أعلام اللغة والنحو ، وكانت

(١) هو عبد الله بن محمد بن عتاب ، شاعر صالح الشعر ، قليله ، وكان راوية الأخبار للخلفاء ، عالماً بأمورهم ، وكان يخلف الفضل بن الربيع على حجة الخلفاء. (راجع: الأغاني ٣ / ٤٢).

(٢) الفرغ بعد الشدة للتنوخي ٣٢٩ / ١ ، تحقيق: عبود الشاجي ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

(٣) العفو والاعتذار للرقام البصري ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ويروى: .. طريداً مشردا. في الفرغ بعد الشدة ٣٢٩ / ١ ، وغيره.

مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من أمثال الكسائي ، والأصمعي ، والفراء
واليزيدي ، وغيرهم ، فكان لابد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا
استحسانهم ، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم العطاء .

وكان بعض الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين قبل إنشادها في
المحافل العظام ، فإن استحسناها مضوا فأنشدوها ، وإن لم يستحسنوها
ذهبوا يعاودون الكرة بصنع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم^(١) .

ومن ذلك ما رواه الأصمعي ، قال : كنا في حلقة يونس ، فجاءنا مروان
ابن أبي حفصة ، فقال: أيكم يونس؟ فأوماً إليه ، فجلس ، فقال أصلحك
الله ، إني أرى أقواماً يقولون الشعر ، لأن يكشف أحدهم عن سوءته فيمشي
في الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر: وقد قلت شعراً أعرضه
عليك ؛ فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئاً سترته ، وأنشده^(٢):

طرقتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دالها

فقال يونس: يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله فيه أشعر

من الأعشى - يريد في قوله^(٣):

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبي عليك فما تقول بدا لها؟

(١) العصر العباسي الأول ، ص ١٣٩ .

(٢) العقد الفريد / ١ / ٢٦٢ .

(٣) المرجع السابق / ٦ / ١٥٧ .

فقال له مروان : قد سؤتني وسررتني : فأما الذي سررتني به
فارتضاؤك الشعر ، وأما الذي سؤتني به فتقديمك إياي على الأعشى ، فقال
يونس : إن الأعشى قال :

فرميت غفلة عينه عن شأنه فأصبت حبة قلبها وطحالها
والطحال لا يدخل في شيء إلا أفسده ، وأنت لم تقل ذلك ^(١) .

ومن أمثلة نقدهم اللغوي :

١- اجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد ، فجرت بينهما مسائل كثيرة ،
فقال له اليزيدي : أتجيز هذين البيتين ؟

ما رأينا خرباً ^(٢) نـ قمر عنه البيض صقر

لا يكون العير مهراً لا يكون ، المهر مهر

فقال الكسائي : يجوز على الإقواء ، وحقه لا يكون المهر مهراً ، فقال له
اليزيدي : فانظر جيداً. فنظر ، ثم أعاد القول ، فقال اليزيدي : لا يكون المهر
مهراً محال في الإعراب ، والبيتان جيدان ، وإنما ابتداءً فقال : المهر مهر ، وضرب
بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد ، فقال له يحيى بن خالد : خطأ الكسائي
مع حسن أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك ، أتكتني أمام أمير المؤمنين
وتكشف رأسك ؟ فقال : إن حلاوة الظفر وعز الغلبة أذهبا عني التحفظ ^(٣) .

(١) الموشح للمرزباني ، ص ٧٠ .

(٢) خربا: الخرب (بفتح الخاء والراء) ذكر الحبارى .

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٣/١٧٨ ، تحقيق: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ،
بيروت ، ط: ١ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، ونشأة النحو ، ص ٤٣ .

٢- اجتمع الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد ، فأشدد الكسائي^(١) :
أنى جزوا عامراً سوءى بفعلهم أم كيف يجزونني سوءى من الحسن؟
أم كيف ينفع ما تُعطي العلوق به رثمان أنف إذا ما ضُنَّ باللبن؟^(٢)
- برفع رثمان- فقال الأصمعي: إنما هو رثمان أنف بالنصب ، فقال له
الكسائي: اسكت ما أنت وذاك؟ يجوز بالرفع والنصب والخفض أما الرفع
فعلى الرد على ما ؛ لأنها في موضع رفع بينفع ، فيصير التقدير أم كيف ينفع
رثمان أنف ، والنصب بتعطي، والخفض على الرد على الهاء في به ، فسكت
الأصمعي^(٣).

وقد تجاوزت جهود اللغويين حدود الجانب اللغوي ، وبدت قوية
واضحة ، فوضعوا الجاهليين في طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من
الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، ولا فناً من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من
جيد ورديء ، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم في الشعر والشعراء ،
ووازنوا بين الإسلاميين والمتقدمين، ونقدوا رواية الشعر، وبنيتة، ومعانيه،
وغير ذلك من الموضوعات^(٤).

(١) المفضليات للمفضل الضبي ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة،
ط: ٦، ص ٢٦٣.

(٢) العلوق: الناقة التي علق قلبها بولدها، فكانوا إذا نحروا حشوا جلده تبناً، ويجعل بين يديها
لتشمه فتدر عليه، فهي تسكن إليه مرة وتنفر عنه أخرى.

(٣) انظر: مغني اللبيب / ١ / ٤٥، ٤٦، ونشأة النحو ص ٣٩، واتجاهات النقد الأدبي العربي ص ١١٩.

(٤) انظر: تقديم أ. د/ محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب نقد الشعر ، ص ٢٨.

(د) ازدهار حركة التأليف والترجمة:

اتسعت في هذا العصر آفاق العرب المعرفية نتيجة احتكاكهم بالشعوب الأخرى ونشطت حركة الترجمة في نقل علوم وآداب هذه الشعوب، مما كان له أثر واضح في نهضة الحركة العلمية^(١).

* * *

(١) راجع: العصر العباسي الأول، ص ٩٨، ١١٧.

المبحث الثاني النقد المنهجي

النقد المنهجي ، هو النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ، ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القول فيها ، ويبسط عناصرها ، ويبصر بمواضع الجمال والقبح فيها^(١).

وكان النقد الأدبي قد أخذ في أواخر العصر العباسي الأول وأوائل العصر العباسي الثاني - يستقل بالبحث والتأليف على أيدي النقاد والأدباء وعلماء اللغة ، فكتب محمد بن سلام الجمحي (م ٢٣٢هـ) كتاب "طبقات فحول الشعراء" الذي يعد أول مؤلف يصل إلينا في النقد وتاريخ الأدب^(٢)، وكتب أبو العباس المبرد (م ٢٨٥هـ) كتاباً في قواعد الشعر ، وكتب أبو العباس ثعلب (م ٢٩١هـ) كتابه قواعد الشعر ، وكتب ابن المعتز (م ٢٩٦هـ) كتاب البديع ، وكتب قدامة بن جعفر (م ٣٣٧هـ) كتابي نقد الشعر ونقد النثر^(٣).

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د/ محمد مندور ، ص ٥ ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٩ م.

(٢) انظر: المرجع السابق ، ص ٥ .

(٣) انظر: تقديم أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب نقد الشعر ، ص ٣١ .

ثم تواتت المؤلفات النقدية التي تقوم على أساس منهجي ، نعرض -

الآن - لكتابين من أهمها ، هما :

أ) الموازنة للآمدي .

ب) الوساطة للجرجاني .

* * *

أ الأمدي ومنهجه في كتاب الموازنة

التعريف بالأمدي :

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدي^(١) الأصل ، البصري المولد والنشأة ، أخذ اللغة والأخبار عن الأخفش الصغير الحسن بن علي بن سليمان ، وأبي بكر بن دريد ، وأبي بكر بن السراج ، وغيرهم . وكان الأمدي حسن الفهم ، جيد الدراية والرواية ، سريع الإدراك ، وقد انتهت رواية الشعر القديم والأخبار إليه في آخر عمره بالبصرة وله شعر حسن ، ومصنفات عديدة ، يذكر الرواة منها : الموازنة بين أبي تمام والبحري ، والمؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء ، ونثر المنظوم ، وتفضيل امرئ القيس على الجاهليين ، وفرق ما بين الخاص والمشارك من معاني الشعراء ، ومعاني شعر البحري ، وتبيين غلط قدامة بن جعفر ، وما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ ، والرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام ، وكتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما ، وشدة حاجة الإنسان إلى أن يعرف قدر نفسه ، وكتاب : فعلت وأفعلت ، وكتاب : الحروف في الأصول والأضداد ، وديوان شعر ، وكانت وفاته سنة ٣٧٠هـ ، وقيل ٣٧١هـ^(٢) .

(١) الأمدي: نسبة إلى آمد ، بلد قديم حصين على نشز دجلة فتحه المسلمون سنة ٢٠هـ. (انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ١/٥٦، ٥٧، دار صادر، بيروت، ط: ٢، ١٩٩٥م).
(٢) راجع: إنباه الرواة للقفطي ١/٣٢٠ ، حققه : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، =

كتاب الموازنة

أولاً : سبب تأليفه :

كتاب "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري" ، صنفه الأمدى أساساً للموازنة بين شعر هذين الشاعرين، وقد ثار الجدل بين النقاد والكتاب في أيهما أفضل من صاحبه؟، وتعصب لكل فريق، وقامت الخصومة بين الفريقين، واحتدمت، وبعد أن فترت حدة الخصومة بعض الشيء جاء الأمدى، فأراد أن يدلي بدلوه في هذا الموضوع فألّف هذا الكتاب^(١).

ثانياً : منهج الأمدى في هذا الكتاب :

أكد الأمدى في بداية كتابه أنه لن يطلق القول بأيهما أشعر في شعره كله ، لتباين الناس في العلم ، واختلاف مذاهبهم في الشعر ، يقول : "فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكني أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول: أيهما أشعر في تلك القصيدة ، وفي ذلك المعنى؟ ثم احكم أنت حينئذ - إن شئت - على جملة ما لكل واحدٍ منهما إذا أحطت علماً بالجميل والردىء"^(٢).

== القاهرة ، ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط:١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٢م ، ومعجم الأدباء لياقوت ٧٥ / ٨ ، وبغية الوعاة للسيوطي ٥٠ / ١ ، حققه : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، لبنان - صيدا ، وانظر: نصوص نقدية ، ص ٧٩ .

(١) نصوص نقدية ، ص ٨٠ .

(٢) الموازنة / ١ / ٦ .

وقدم الأمدى لموازنته بذكر احتجاج الخصمين - أنصار أبي تمام ،
وأنصار البحترى - يقول: "وأنا أبتدىء بذكر ما سمعته من احتجاج كل
فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى عند تحاصمهم في
تفضيل أحدهما على الآخر ، وما ينعاه بعض على بعض ، لتأمل ذلك
وتزداد بصيرة وقوة في حكمك إن شئت ، واعتقادك فيما لعل أن
تعتقده"^(١).

ثم أفصح الأمدى عن منهجه وخطته فقال : وأنا أبتدىء بذكر مساوئ
الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ، وأذكر طرفاً من سرقات أبي تمام ،
وإحالاته ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوئ البحترى في أخذ ما أخذه من
معاني أبي تمام ، وغير ذلك من غلظه في بعض معانيه.

ثم أوازن بين قصيدة وقصيدة إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب
القافية ، ثم بين معنى ومعنى ، فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك
وتنكشف.

ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه
صاحبه.

وأفرد باباً لما وقع في شعريهما من التشبيه ، وباباً للأمثال ، أختم بهما
الرسالة.

(١) الموازنة ٦/١ .

ثم أُتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما ، وأجعله مؤلفاً على حروف المعجم ؛ ليقرب تناوله ، ويسهل حفظه وتقع الإحاطة به إن شاء الله^(١).
لقد كشف الأمدى في موازنته عن ناقد حاذق بصير ، وتضمنت موازنته الكثير من الآراء النقدية العظيمة ، غير أنه لم يسلم من الملاحظات أو المآخذ التي وجهت إلى كتابه ، ومنها:

١- أنه حاول أن يرضي أصحاب أبي تمام وأصحاب البحري فوقع في التناقض مرتين^(٢):

إحدهما : أنه قال في بداية كلامه عن أبي تمام : "إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه على شدة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة ، وإنه إذا لاح له أخرج به أي لفظ استوى من ضعيف أو قوي"^(٣)، ثم عاد وقرر - في آخر كلامه - أن أبا تمام "لم يأت إلا بأبلغ لفظ وأحسن سبك"^(٤).

والأخرى: أنه وقع في تناقض فكري حين انتصر للطيف المعاني الذي اعتبره ضالة الشعراء وطلبتهم ، "وبهذه الخلطة دون سواها فضل امرؤ القيس .. ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرئ القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر الشعراء من أهل زمانه ؛ إذ ليست له فصاحة

(١) الموازنة ١ / ٥٧ .

(٢) راجع: نصوص نقدية ، ص ٩٢ ، ٩٧ .

(٣) الموازنة ١ / ٤٢٠ .

(٤) المرجع السابق ١ / ٤٢٢ .

توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من القوة والجزالة ما ليس لألفاظهم"^(١)، ثم عاد فقرر أن "دقيق المعاني موجود في كل أمة وفي كل لغة ، وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد به المستعمل في مثله ... وتلك طريقة البحري"^(٢).

٢- أن الأمدى خالف ما أخذ به نفسه في أول كتابه ألا يطلق القول بأبيها أشعر عنده ، فتسرّع في الحكم بين الشعاعين قبل أن يقيم الموازنة، وجارى ما شاع بين الناس من أن أبا تمام حكيم ، وإنما الشاعر البحري^(٣)؛ إذ يقول بعد الحديث عن طريقة البحري: وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، وكانت عبارته مقصرة عنها ، ولسانه غير مدرك لها ، حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر - قلنا له: قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة ، فإن شئت دعوناك حكيمًا ، أو سميناك فيلسوفًا ولكن لا نسميك شاعرًا ، ولا ندعوك بليغًا ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ، ولا على مذاهبهم ، فإن سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء .

(١) الموازنة /١ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(٢) المرجع السابق /١ ، ٤٢٣ .

(٣) نصوص نقدية ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى
الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحوج مستمعه إلى طول التأمل ، وهذا مذهب
أبي تمام في عظم شعره .

وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء ، وحسنًا ،
ورونقًا ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد ، وذلك
مذهب البحثري ، ولهذا قال الناس : لشعره ديباجة ، ولم يقولوا ذلك في شعر
أبي تمام^(١) .

* * *

(١) الموازنة / ١ / ٤٢٥ .

ب) القاضي الجرجاني ومنهجه في كتاب الوساطة

القاضي الجرجاني^(١):

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني، ولد في جرجان سنة ٢٩٠ هـ، ونشأ بها، ثم رحل في طلب العلم، فحصل الفقه، والتفسير والأدب، والتاريخ، واتصل بالصاحب بن عباد الذي قربه وولاه قضاء جرجان، ثم قضاء الري، ثم قاضيًا للقضاة ببقية حياته.

وكان القاضي فقيهاً، مفسراً شاعراً، ناقدًا، وهو القائل^(٢):

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
وما زلت منحازاً بعرضي جانباً من الدم أعتد الصيانة مغنماً
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظماً
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل أهل الأرض أرضاه منعماً
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لا قيت لكن لأخدماً

(١) راجع في أخباره: يتيمة الدهر للثعالبي ٣/٤، تحقيق: د. مفيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٢٧٨، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ومعجم الأدباء لياقوت ١٤/١٤، ومقدمة كتاب الوساطة لمحمد أبي الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي، ونصوص نقدية، ص ١٠٤، ومحاضرات في النقد الأدبي، ص ٨٨.

(٢) الإعجاز والإيجاز للثعالبي، ص ١٣٧، مكتبة القرآن، القاهرة، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ٢/١٥٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

ولم أقض حق العلم إن كان كَلِّمًا بدا مطمع صيرته لي سلمًا
أشقى به غرسًا وأجنيه ذلة إذا فابتياح الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أذلوه جهارًا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما
أما مؤلفاته فيذكرون منها: الوكالة في الفقه ، تفسير القرآن المجيد،
تهذيب التاريخ ، ديوان شعر ، الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وهو الكتاب
الوحيد الذي وصلنا من مؤلفات القاضي .
ويختلفون في تاريخ وفاته ، فيرجح بعضهم أنها كانت سنة ٣٦٢هـ ،
ويرى آخرون أنها كانت سنة ٣٦٦هـ .

كتاب الوساطة

(أ) سبب تأليفه:

يقول الثعالبي: ولما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار
مساوئ المتنبى عمل القاضي أبو الحسن كتابه "الوساطة بين المتنبى
وخصومه" فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ،
واستولى على الأمر في فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم
العرب وتمكنه من جودة الحفظ ، وقوة النقد^(١).

وإن كان ما ذكره الثعالبي يعد السبب الظاهر أو المباشر لتأليف كتاب

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ٤ / ٤ .

الوساطة فإن السبب الحقيقي هو ما ذكره الجرجاني في مقدمة كتاب فقال: وما زلت أرى أهل الأدب - منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم - في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين: من مطب في تقريظه ، منقطع إليه بجملته ، يتلقى مناقبه بالتعظيم ، ويشيع محاسنه بالتفخيم ، ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فإن عشر على بيت مختل النظام أو نبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصره خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر - وعائب بروم إزالته عن رتبته، فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطّه عن منزلة بَوَّأه إياها أدبه ، فهو يجتهد في إخفاء فضائله ، وإظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه^(١).

فأراد الجرجاني أن يدلي بدلوه في هذه القضية ، مقررًا أنه سيتحرى العدل ويلتزم الإنصاف ، غير مجامل ولا متحامل .

(ب) منهجه :

يمكن تقسيم الكتاب قسمين كبيرين، في أولهما يضع الجرجاني رأيه ونظره في خدمة هدفه ويبين وجهته في الأدب والنقد الأدبي، وفي القسم الآخر يحاول تطبيق رأيه وإيضاحه بالمثل والشواهد^(٢).

(١) الوساطة ، ص ٣ .

(٢) نصوص نقدية ، ص ١٠٥ .

ففي القسم الأول بدأ القاضي بما كشف وجهته في محاولة الدفاع عن
المتنبي فقرر أن التفاضل داعية التنافس ، والتنافس سبب التحاسد ، وأن
أهل النقص رجالان : رجل أتاه التقصير من قبيله ، وقعد به عن الكمال
اختياره ، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ، ويحنو على الفضل بقدر سهمه ،
وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته ، ومؤثلاً في تركيب فطرته ، فاستشعر
لليأس من زواله ، وقصرت به الهمة عن انتقاله ، فلجأ إلى حسد الأفاضل ،
واستغاث بانتقاص الأمثال ، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته وستر ما
كشف العجز عن عورته اجتذابهم إلى مشاركته، ووسمهم بمثل سمته^(١) .
وكأنه يومئ بذلك إلى أن التحامل على أبي الطيب راجع إلى النقص
الذي يدفع صاحبه إلى حد الأفاضل وانتقاص الأماجد .

ثم يقرر أمراً هاماً تكاد الوساطة كلها تقوم على أساسه ، وهو أن
العبرة بإحسان الشاعر في الجملة ، فيقول : والفضل آثار ظاهرة والتقدم
شواهد صادقة ، فمتى وُجِدَت تلك الآثار ، وشوهدت هذه الشواهد
فصاحبها فاضل متقدم ، فإن عُثِرَ له من بعد على زلة ، ووجدت له بعقب
الإحسان هفوة انتحل له عذر صادق ، أو رخصة سائغة ، فإن أعوز قيل :
زلة عالم ، وقل من خلا منها ، وأي الرجال المهذب؟ ولولا هذه الحكومة
لبطل التفضيل ، ولزال الجرح ، ولم يكن لقولنا فاضل معنى يوجد أبداً ، ولم

(١) الوساطة ، ص ١ .

نسم به أحدًا، وأي عالم سمعت به ولم يزل ويغلط؟ أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يهف ولم يسقط؟^(١).

ولتأكيد وجهته شرع في ذكر أغاليط الشعراء من الجاهليين والإسلاميين، مؤكداً أنه لم يسلم من ذلك قديم ولا محدث.

وقد عرض في هذا القسم لبعض القضايا، وأبدى رأيه فيها كاختلاف الشعر باختلاف الطبائع ، وأثر التحضر في الشعر ، والأسلوب الأمثل ، والبديع ، وأنهى هذا القسم بالحديث عن الاستهلال والتخلص والخاتمة.

وفي القسم الثاني بدأ الجرجاني في الوساطة فذكر أن خصم المتنبى فريقان:

أحدهما: يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلي وما سلك به ذلك المنهج ، وأجري على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقه الشعراء رؤبة ، وابن هرمة ، وابن ميادة ، والحكم الخصري ، فإذا انتهى إلى من بعدهم - كبشار وأبي نواس وطبقتهم - سمى شعرهم ملحاً وطرفاً واستحسن منه البيت استحسان النادرة ، وأجراه مجرى الفكاهة ، فإذا أنزلت به إلى أبي تمام وأضرابه نفض يده ، وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتاً قط ، ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد^(٢).

(١) الوساطة ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج
بعيب المتأخرين ، فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ، ويعجب
منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه
ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من
تسليم فضيلة لمحدث والإقرار بالإحسان لمولد^(١).

وحكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي^(٢) :

هل إلى نظرة إليك سبيل فبئال الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال: والله هذا الديباج الخسرواني ، لمن تنشدني؟ فقلت: إنهما ليلتهما ،

فقال: لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر^(٣).

وليست الحاجة الآن مع هؤلاء - وإن كانوا هم أولى بالحاجة
والمنازعة - لأنهم لم يخلصوا شعر المتنبي بالإنكار؛ بل أنكروا شعر كل محدث
أو متأخر " فلا تشغلن بهذه الطائفة ما دمت تنظر بين المتنبي وأهل عصره ،
وأخر المنازعة في هذا الرأي ، وإن كان الخلاف الأكبر ، فإن لكل مقام
مقالاً " ^(٤).

(١) الوساطة ، ص ٥٠ .

(٢) أمالي القاضي / ١ / ١٩٦ ، والوساطة ، ص ٥٠ .

(٣) الوساطة ، ص ٥٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

والفريق الآخر من خصوم المتنبي: هو من استحسن رأيك في إنصاف شاعر ، ثم ألزمتك الحيف على غيره ، وساعدك على تقديم رجل ، ثم كلفك تأخير مثله ؛ فهو يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحري ، ويسوغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي ، حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله ، وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ، ونفر نفار المضيم ، فغضّ طرفه ، وثنى عطفه ، وصعر خده ، وأخذته العزة بالإثم ، وكأنما زوى بين عينيه عليك المحاجم^(١).

وإلى هذا الفريق يتوجه الجرجاني بقوله: خبرني عن تعظمه من أوائل الشعراء ، ومن تفتتح به طبقات المحدثين ؛ هل خلص شعر أحدهم من شائبة ، وصفا من كدر ومعاية؟ فإن ادّعت ذلك وجدت العيان حجيجك، والمشاهدة خصمك ؛ وعدنا بك إلى إضعاف ما صدّرنا به مخاطبتك ، واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها ما يحول بينك وبين دعواك ، ويججزك إن كان بك أدنى مسكة عن قولك.

فإن قلت: قد أعر بالبيت بعد البيت أنكروه ، وأوجد اللفظ بعد اللفظ لا أستحسنه ، وليس كل معانيهم عندي مرضية ، ولا جميع مقاصدهم صحيحة مستقيمة. قلنا لك: فأبو الطيب واحد من الجملة ، فكيف خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة فلم أفرد بالحيف دونها؟

(١) الوساطة ، ص ٥٣ .

فإن قلت: كثر زلله ، وقل إحسانه ، واتسعت معايبه ، وضائق محاسنه ، قلنا: هذا ديوانه حاضرًا وشعره موجودًا ممكنًا ؛ هلم نستقرئه ، ونقلبه ونمتحنه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات ، وبكل نقيصة عشر فضائل ، فإذا أكملنا لك ذلك واستوفيته ، وقادك الاضطرار إلى القبول أو البُهت ، ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به ، وإلى ما فضل بعد المقاصّة فحاكمنك إليه^(١).

ولكي يصل الجرجاني إلى هدفه جعل يورد أمثلة من الشعر - جيده ورديته - لأبي نواس وأبي تمام المشهود لهما عند من يعترف بالشعر الجديد وبالشعراء المحدثين ، فإذا تقبلناهما بما لهما من حسنات وهنات فلتقبل - وهذا هو الهدف - المتنبي بما له من مثل ذلك^(٢).

ثم أخذ يعرض بعض ما أخذ على المتنبي في شعره ، وانتهى إلى القول بأن النقد مرده إلى الذوق قبل الرأي ؛ وأن العبرة بمجموع الشعر لا بأمثلة منه ، وديوان الرجل مليء بالأشعار التي جمعت الحسن من أطرافه ، وأخذ الجرجاني يسوق العديد من هذه الأشعار.

ثم انتقل للحديث عن السرقات فأفصح عن رأيه فيها ، وذكر طرفًا من سرقات المتقدمين ، ثم عرض لسرقات المتنبي ، وفي سبيل التماس العذر

(١) الوساطة ، ص ٥٣ .

(٢) نصوص نقدية ، ص ١٠٧ .

له حاول الجرجاني التماس العذر للمتأخرين جميعًا ، فقال : " ومتى أنصف علمت أن أهل عصرنا ، ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة ، وأبعد من المذمة ؛ لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسيق إليها ، وأتى على معظمها، وإنما يحصل على بقايا: إما أن تكون تركت رغبة عنها ، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها، واعتياص مراميها ، وتعذر الوصول إليها ، ومتى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل يظنه غريبًا مبتدعًا ، ونظم بيت يحسبه فردًا مخترعًا ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثلًا يغض من حسنه. ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بتّ الحكم على شاعر بالسرقة " (١).

ثم أنهى الجرجاني وساطته بذكر بعض مآخذ العلماء على أبي الطيب محاولاً الدفاع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وأخيرًا يمكن القول بأن الجرجاني كشف في وساطته عن ناقد بصير خبير في فن الأدب ، خبير بمواقع الكلم ، غير أننا نسجل عليه أنه وضع نفسه وفكره - نظرًا وتطبيقًا - موضع المحامي عن المتنبي " (٢).

وإذا التمسنا له في ذلك بعض العذر ، لأنه كان بصدد الرد على من ينكرون فضل المتنبي ، ويتأخرون به عن أهل طبقتهم ، فإننا لا نؤيد مسامحته

(١) الوساطة ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) انظر: نصوص نقدية ، ص ١٤٤ .

في بعض عيوب المتنبي ، ومحاولته التماس الأعذار له ، " وكان أولى له أن يشجبها وينفيها ، ويكف الناشئين عنها" ^(١).

* * *

(١) نصوص نقدية ، ص ١٤٤ .

الفصل الخامس

من قضايا النقد الأدبي القديم

١ . اللفظ والمعنى

تعد قضية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون واحدة من أبرز القضايا التي أخذت نصيباً وافراً من التناول والدراسة في القديم والحديث^(١).

ولم يتفق النقاد فيها على رأي ثابت يكون معياراً للتفاوت أو التفاضل بين المنشئين ؛ فبعض النقاد ينتصر لجانب اللفظ ، ويرى أن الشأن ليس في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على هذه الصفة التي تقدمت^(٢).

(١) انظر: الحيوان للجاحظ ١/ ١٣١، والبيان والتبيين ١/ ٧٥، ٧٦، ٨٣، والشعر والشعراء ، ص ٢٤ ، والموازنة للأمدى ١/ ٤٢٠، ٤٢٩، وعيار الشعراء ، ص ٢١، وأسرار البلاغة ١/ ١٢٤، تعليق: محمود شاكر ، مطبعة المدني بجدة ، ومقدم شرح ديوان الحماصة للمرزوقي ١/ ٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، واتجاهات النقد الأدبي العربي ، ص ٢٢٨ ، وقضايا النقد الأدبي الحديث ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٢٦ ، مطبعة زهران ، ١٩٦٨م ، وفي محيط النقد الأدبي ، ص ٥٥ ، والاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي (رسالة دكتوراه) للمؤلف ، ص ٢٦٢ .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٦٣ - ٦٦ .

وبعضهم ينتصر للمعنى ، ويرى أن الألفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم
- لا شك - أشرف من الخادم^(١)، وأن لطيف المعاني هو ضالة الشعراء
وطلبتهم ، وبهذه الخلة دون سواها فُضِّل امرؤ القيس على سائر شعراء
الجاهلية^(٢).

ومنهم من يقف موقفاً وسطاً فلم يفصل بينهما ، ولم يفضل أحدهما
على الآخر ، وشبههما بالروح والجسد ، فاعتبر اللفظ جسداً روحه المعنى ،
لا غنى لأحدهما عن صاحبه^(٣).

وهذا ما أميل إليه ، لأن الكلام إذا خلا من المعاني الجيدة كان كالطبل
الأجوف لا فائدة فيه ، ولا طائل من ورائه^(٤).

كما أن الشاعر أو الأديب إذا أتى بالمعنى الجيد في تأليف سيئ ولفظ
رديء ذهب بطلاوة معناه ، وأفسده وعمّاه^(٥)، فلا اللفظ وحده يجدي ولا
المعنى وحده يغني ، وإنما يسمو الكلام ويرتفع قدره بهما معاً.

(١) الخصائص لابن جني ٢/ ٢٢٠ تحقيق : محمد على النجار ، ط: عالم الكتب ، بيروت.

(٢) الموازنة / ١ / ٤٢٠ .

(٣) انظر: العمدة / ١ / ١٢٤ .

(٤) انظر: في محيط النقد الأدبي ، ص ١١٠ .

(٥) انظر: الموازنة للآمدي / ١ / ٣٢٥ .

- عبد القاهر ونظرية النظم :

ذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أن المدار في البلاغة ليس على اللفظ وحده ، وأكد أن ليس الغرض بنظم الكلم: أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل^(١). فالنظم - في رأيه - هو أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيف عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء^(٢).

ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر ، أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا مجردة من معاني النحو ، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل ، أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكر متفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه ، وجعله فاعلا له أو مفعولا ، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام ، مثل أن يريد جعله مبتدأ، أو خبرًا، أو صفة، أو حالاً، أو ما شاكل ذلك. فإنك إذا فكرت في الفعلين أو الاسمين ، تريد أن تخبر بأحدهما عن الشيء أيها أولى أن تخبر به وأشبه بغرضك؟ مثل أن تنظر: أيها أمدح أو أذم؟ أو فكرت في الشئيين تريد أن تشبه الشيء بأحدهما أيها أشبه به؟ كنت قد فكرت في معاني أنفس الكلم ، إلا أن فكرك لم يكن إلا من بعد أن

(١) تقديم الأستاذ الدكتور / محمد عبد خفاجي لأسرار البلاغة ، ص ٤٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٨١ .

توخيت فيها معنى من معاني النحو ، وهو أن أردت جعل الاسم الذي فكرت فيه خبرًا عن شيء ، أردت فيه مدحًا أو ذمًا أو تشبيهًا أو غير ذلك من الأغراض ، ولم تجيء إلى فعل أو اسم ففكرت فيه فردًا ، ومن غير أن كان لك قصد أن تجعله خبرًا أو غير خبر^(١).

وإن أردت مثالا فخذ بيت بشار^(٢) :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفرادًا عارية من معاني النحو التي تراها فيها ، وأن يكون قد أوقع "كأن" في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء ، وأن يكون فكر في "مثار النقع" من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني ، وفكر في "فوق رءوسنا" من غير أن يكون قد أراد أن يضيف فوق إلى الرءوس ، وفي "الأسياف" من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على مثار ، وفي الواو من دون أن يكون أراد العطف بها ، وأن يكون فكر في "الليل" من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرًا لكأن ، وفي "تهاوى كواكبه" من دون أن يكون أراد أن يجعل تهاوى فعلاً للكواكب ، ثم يجعل الجملة صفة لليل ، ليتم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم تخطر هذه الأشياء بباله إلا مرادًا فيها هذه الأحكام والمعاني التي

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

(٢) عيون الأخبار ٢ / ٢٠٧ .

تراها فيها؟^(١).

وهل يقع في وهم - وإن جهد- أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية؟ أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ، ومما يكد اللسان أبعد؟

وهل تجد أحدًا يقول: " هذه اللفظة فصيحة" ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها؟

وهل قالوا: لفظة متمكنة ، ومقبولة ، وفي خلافه : قلقة ، ونابية ، ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معنيهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤداها؟^(٢).
وخلاصة ما يقرره عبد القاهر هو^(٣):

١- أنه لا فصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون في النص الأدبي .

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٤١١ ، ٤١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) تقديم أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي لأسرار البلاغة ، ص ٨٢ .

٢- أن البلاغة في النظم ، لا في الكلمات مفردة ، ولا في مجرد المعاني ،
والباحث عن الإعجاز عليه أن يتبعه في النظم وحده.

٣- أن النظم هو مراعاة معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما
بين معاني الكلم .

وفي هذا أيضًا ما يدعم ما ذهبنا إليه أن اللفظ والمعنى كالروح والجسد
لا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا تتم بلاغة الكلام إلا بمراعاة ما يقتضيه
السياق والنظم من كلٍّ منهما .

* * *

٢- خطأ المعاني وصوابها في ضوء كتاب " الصناعتين " لأبي هلال العسكري^(١)

التعريف بالناقد :

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، ولد في "عسكر مكرم"^(٢)، وإليها نسب ، وقد تتلمذ بها على خاله وأستاذه أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن إسماعيل بن زيد بن حكيم العسكري ، وربما اشتبه ذكر أبي هلال بذكر خاله أبي أحمد لتوافقهما في الاسم واسم الأب والنسبة .

وكان أبو هلال موصوفاً بالعلم والفقہ ، قال أبو طاهر السلفي : سألت

(١) راجع ترجمته في: إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي ٤/ ١٨٩ ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ٨ / ٢٥٨ ، وبغية الوعاة للسيوطي ١ / ٥٠٦ ، وطبقات المفسرين للحافظ شمس الدين الداودي ١ / ١٣٨ ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : أولى ، ١٠٤٣هـ - ١٩٨٣ م ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢ / ٢٥٢ ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، ط : دار المعارف ، ط : رابعة ، ١٩٧٧ م ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣ / ٢٤٠ ، ط : دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م ، والأعلام للزركلي ٢ / ١٩٦ ، ط : دار العلم للملايين ، بيروت ، ط : خامسة ، ١٩٨٠ م .

(٢) عسكر مكرم : بلد مشهور من نواحي خوزستان ، وقد نسب إليها قوم من أهل العلم منهم : العسكريان أبو هلال وخاله أبو محمد . (انظر : معجم البلدان لياقوت ٤ / ١٢٣ ، ١٢٤ ، ط : دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م .

الرئيس أبا المظفر محمد بن أبي العباس الأبيوردي^(١) عن أبي هلال فأثنى عليه ، ووصفه بالعلم والفقہ معًا. غير أن الغالب على أبي هلال كان هو الأدب والشعر ، فسلك في عداد الأدباء^(٢).

وكان أبو هلال يعمل بتجارة البز إلى جانب تحصيل العلم وتعليمه ، وقد تنقل بتجارته إلى بلاد متعددة ، فكان يأخذ عن فضلائها ، ويعود بمتاجره^(٣) إلى بلده "عسكر مكرم" ، ولم يشغله ذلك عن التأليف وإثبات الفوائد^(٤). وله مصنفات عديدة منها^(٥): الصناعتين ، ديوان المعاني ، جمهرة الأمثال ، شرح ديوان أبي محجن الثقفي ، الأوائل ، العمدة ، الفروق اللغوية ، التلخيص في اللغة ، ما تلحن فيه الخاصة ، نوادر الواحد والجمع ، شرح

(١) هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العباس ، المعروف بالأبيوردي - نسبة إلى أبيورد إحدى مدن خراسان - وكان أحد قرائها ، شاعرًا ، متبحرًا في الأدب ، خبيرًا بالأنساب ، صاحب تصانيف كثيرة ، توفي سنة ٥٠٧هـ . (انظر : معجم الأدباء لياقوت ١٧/١٣٤).

(٢) انظر: معجم الأدباء ٨ / ٢٥٨ ، ٢٥٩.

(٣) متاجره : تجارته .

(٤) إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي ٤ / ١٨٩ ، وانظر: دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخري ١ / ٥٢٨ ، تحقيق: د/ عبد الفتاح محمد الحلو ، ط: مطبعة المدني بالقاهرة ، نشر دار الفكر العربي .

(٥) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي ٨ / ٢٦٣ ، وبغية الوعاة للسيوطي ١ / ٥٠٦ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢ / ٢٥٢.

الحماسة ، الدرهم والدينار ، الكرماء ، من احتكم من الخلفاء إلى
القضاء ، المحاسن في تفسير القرآن ، وله ديوان شعر .
ولا شك أن هذه المصنفات إنما تدل على سعة باع الرجل ، وكثرة
اطّاعه ، وتبحره في علوم العربية ، وتنم عن ناقدٍ خبيرٍ له مكانته في ميدان
الأدب والنقد .

ولكن حرفة الأديب - فيما يبدو - كانت قد أصابته ، فقال يلعن
القرطاس والحبر والقلم^(١):

إذا كان مالي مال من يلقط العجم وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعي بالأصالة والحجا وما ربحت كفي من العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي ولا يلعن القرطاس والحبر والقلم
ويقول^(٢):

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
وتهجوهم عني رثاءة كسوتي هجاءً قبيحاً ما عليه مزيد
وفاته :

لم يجزم أحد من المؤرخين القدماء بتحديد سنة وفاته ، قال ياقوت:

(١) دمية القصر للباخرزي ١/٥٢٦ ، وانظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ، ص ١٤٥ .

(٢) دمية القصر ١/٥٢٧ ، ومعجم الأدباء ٨/٢٦٢ .

"وأما وفاته فلم يبلغني فيها شيء غير أنني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه : وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة"^(١).

وليس فيما ذكره ياقوت ما يدل على أنه مات في هذه السنة على نحو ما ذكر كل من حاجي خليفة^(٢) وبروكلمان^(٣)، بل إن القفطي - أقدم من ترجموا لأبي هلال - ذكر أنه عاش بعد سنة أربعمائة؛ مما يجعل ما ذهب إليه حاجي خليفة وبروكلمان ومن تابعهما بمنأى عن التحقيق العلمي، ولهذا ترى صاحب الأعلام يحتاط لنفسه، فيذكر أن وفاة أبي هلال كانت بعد سنة ٣٩٥هـ^(٤).

* * *

(١) معجم الأدباء ٨ / ٢٦٤.

(٢) انظر: كشف الظنون ١ / ١٩٩، ط دار الفكر، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢ / ٢٥٢.

(٤) انظر: الأعلام للزركلي ٢ / ١٩٦.

نظرة أبي هلال إلى المعاني

استهل أبو هلال الحديث عن معاني الشعر بقوله : "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معانٍ تدل عليها ويعبر عنها ؛ فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ؛ لأن المدار - بعد - على إصابة المعنى ؛ ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما من الأخرى معروفة .

ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغه من اللغة ، ثم انتقل إلى لغة أخرى ؛ تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى ، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحوَّها إلى اللسان العربي ، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى ، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال .

والمعاني على ضربين : ضرب يتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه ، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة - والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط..

وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك ، ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة ، ولا يتكلم فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه ، ولا يغيره

ابتداعه له ؛ فيساهل نفسه في تمجيد صورته ، فيذهب حسنه ، ويطمس نوره ، ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد .

وللخطأ صور مختلفة نبهت على أشياء منها في هذا الفصل ، وبينت وجوهها ، وشرحت أبوابها ؛ لتقف عليها فتجتنبها ، كما عرّفتك مواقع الصواب فتعتمدها ، وليكون فيما أوردت دلالة على أمثاله مما تركت ، ومن لا يعرف الخطأ كان جديرًا بالوقوع فيه"^(١).

التعليق :

لقد حاول أبو هلال - هنا - أن يؤكد على أهمية المعنى ، فقرر أن المدار - بعد - إنما هو في إصابة المعنى ، وأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، وأن الألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما من الأخرى معروفة .
إذن فالمعاني هي الأصل ، والألفاظ حلية أو زينة ، وقد تأثر أبو هلال في ذلك بقول ابن طباطبا : "وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسنة التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض"^(٢).

غير أن أبا هلال كان قد انتصر للفظ في أكثر من موضع ، فقال :
"وليس الشأن في إيراد المعاني ؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ،

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، تحقيق : د/ مفيد قميحة ، ط: دار الكتب

العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا ، ص ٢١ .

والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم^(١) والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت^(٢) "ملتهمًا في ذلك قول الجاحظ : " والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ ، وسهولته ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير"^(٣).

ويمضي أبو هلال في تأكيد عنايته واهتمامه باللفظ فيقول: "ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ؛ أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط ؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مبانيه ، وغريب معانيه ، على فضل قائله ، وفهم منشئه ، وأكثر هذه الأوصاف

(١) أود النظم : عوجه ، ويقال: أقام أوده إذا قوم اعوجاجه .

(٢) انظر : الصناعتين ، ص ٧٢ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣ / ١٣١ ، تحقيق الأستاذ : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث ، بيروت ،

الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .

ترجع إلى الألفاظ دون المعاني"^(١).

ونخلص من هذا كله إلى ما يأتي:

أ- أن أبا هلال كان يحاول المواءمة بين اللفظ والمعنى ، وهذا ما عبر عنه بقوله: " فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال"^(٢). غير أن احتفاءه باللفظ كان أقوى وأبين وأوضح من احتفائه بالمعنى.

ب- أنه في محاولته المواءمة بين اللفظ والمعنى انتصر للمعنى هنا ولللفظ هناك، مما أدى إلى التناقض، إذ يؤكد في هذا الفصل أن مدار البلاغة إنما هو في إصابة المعنى، في حين أنه قد أكد في الفصل الذي قبله أن مدار البلاغة إنما هو في تحسين اللفظ وإحكام صنعته.

* * *

(١) انظر: الصناعتين ، ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

عيوب المدح

بعد أن نبه أبو هلال إلى ضرورة توخي الإصافة في المعنى ، ويبيّن أن للخطأ صوراً مختلفة - شرع في التفصيل بعد الإجمال ، فبدأ بذكر عيوب المدح، فقال: "ومن عيوب المدح عدول المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل ، والعفة ، والعدل ، والشجاعة ، إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحُسن ، والبهاء ، والزينة ، كما قال ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان:

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
فغضب عبد الملك ، وقال : قد قلت في مصعب:

إنما مصعب شهاب من اللد له تجلت عن وجهه الظلماء
فأعطيته المدح بكشف الغم ، وجلاء الظلم ، وأعطيتني من المدح ما لا
فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة.
ومثل ذلك قول أيمن بن خريم في بشر بن مروان :

يا بن الأكارم من قريش كلها وابن الخلائف وابن كل قلمس^(١)
من فرع آدم كابرًا عن كابر حتى أتيت إلى أبيك العنيس^(٢)
مروان ، إن قناته خطية غرست أرومتها أعز المغرس^(٣)

(١) الخلائف: الخلفاء ، وكلاهما جمع خليفة. القلمس : السيد العظيم ، والخَيْرُ المِعْطاء.

(٢) العنيس (وزان جعفر): الأسد .

(٣) الأرومة: الأصل.

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كلل تاجها بالفِفس^(١)
فساؤها ذهب وأسفل أرضها ورق تلاً في صميم الحندس^(٢)
فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذي يختص بالنفس ، وإنما
ذكر سؤدد الآباء ، وفيه فخر للأبناء ، ولكن ليس العظامي كالعصامي ،
وربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصة للولد إذا تأخر عن رتبة الوالد ،
ويكون ذكر الوالد الفاضل تقريراً للولد الناقص ، وقد قيل لبعضهم : لم
لا تكون كأبيك ؟ فقال : ليت أبي لم يكن ذا فضل ؛ فإن فضله صار نقصاً
لي . وقد قال الأول :

إنما المجد ما بنى والد الصدق وأحيا فعاله المولود
ثم ذكر أيمن بناء قبة حسنة ، وليس بناء القباب ؛ مما يدل على جود
وكرم ، بل يجوز أن يبني اللئيم البخيل الأبنية النفيسة ، ويتوسع في
النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق ورد السائل ، وليس اليسار مما
يمتدح به مدحاً حقيقاً ؛ ألا ترى كيف يقول أشجع السلمي :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع

* * *

(١) الففس (بكسر الفاءين) : البيت المصور بالفيسفاء ، وهي ألوان تؤلف من الخرز ، وتركب
في حيطان البيوت من داخل كأنه نقش مصور . (انظر : اللسان ، مادة : "ففس") .
(٢) الحندس : الظلام الشديد .

الجيد في المديح

والجيد في المديح قول زهير:

هنالك إن يستحولوا المال يخولوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا^(١)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية يتناها القول والفعل
فلما استتم وصفهم بحسن المقال ، وتصديق القول بالفعل ؛ وصفهم
بحسن الوجوه ، ثم قال :

على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين السماحة والبذل
فلم يخل مكثراً ولا مقللاً منهم من برّ وفضل .
ثم قال :

فإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
فوصفهم بالحلم ، ثم قال :

وإن قام منهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل

(١) ويروى: (إن يستخبلوا)، والاستخوال: إعطاء المال على سبيل التمليك، والاستخبال: إعطاؤه على سبيل العارية. (انظر: شرح شعر زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب، ص ٩٣، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، وقيل: الاستخوال مثل الاستخبال، من أخبلته المال إذا أعرته ناقة لينتفع بألبانها وأوبارها، أو فرساً يغزو عليه. (اللسان، مادة "خول"). ييسروا: يلعبوا الميسر. يغلوا: يغالوا في المقامرة، وكانوا يقامرون على سنان الجزر، فلا ينحرون إلا غاليه.

فوصفهم - أيضاً - بالتضافر والتعاون ، فلما آتاهم هذه الصفات
النفسية ذكر فضل آبائهم ، فقال:

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتنبت إلا في مغارسها النخل^(١)
التعليق:

لقد تبنى أبو هلال - في حديثه عن عيوب المديح - وجهة قدامة
ابن جعفر في ذلك ، وتأثر - إلى حد كبير - بقوله: " لما كانت فضائل
الناس من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر
الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك - إنما هي
العقل، والشجاعة ، والعدل ، والعفة ؛ كان القاصد لمدهج الرجال بهذه
الأربع الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً"^(٢).

وقد نسخ أبو هلال جميع المثل التي ذكرها قدامة في باب عيوب المديح،
فنقلها برمتها ليدعم بها وجهته^(٣).

على أنني ألاحظ الآتي:

أ- أن عبارة أبي هلال أدق من عبارة قدامة ، فقدامة يؤكد أن المادح

(١) الصناعتين ، ص ١١٧ ، ١١٨ ، والخطي: الرمح ، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأً بالبحرين ترفأً إليه
السفن إذا جاءت من أرض الهند. الوشيح: شجر الرماح ، وقيل: هو ما نبت من القنا والقصب
ملتقاً ، دخل بعضه في بعض ، وواحدته وشيحة.

(٢) نقد الشعر لقدامة ، ص ٩٦ .

(٣) انظر: نقد الشعر لقدامة ، ص ١٨٤ - ١٨٦ ، والصناعتين ، ص ١١٤ - ١١٦ .

بالعقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة- هو المصيب ، وما عداه
مخطئ ، أما أبو هلال فيرى أن العيب إنما هو في العدول عن هذه
الصفات إلى ما عداها من أوصاف الجسم من الحسن ، والبهاء ،
والزينة ، ونحو ذلك .

فلا مانع - في رأي أبي هلال - من أن ينضم إلى صفات
النفس غيرها من أوصاف المديح ، بل نراه يدعو إلى ذلك ،
فيقول: "ومع ما ذكرناه لا ينبغي أن يخلو المدح من مناقب لآباء
المدوح ، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه"^(١). وقدامة لا
يعبأ بذلك ، ويرى أن المديح يجب أن ينحصر في صفاته الأربع
وما تفرع عنها.

ب- أن ما قرره قدامة وتابعه عليه أبو هلال لم يسلم من النقد ، فقد
وجّه الآمدي نقداً عنيفاً إلى وجهة قدامة في المديح ، فقال: "فأما
الجلال ، والبهاء ، والهيبة ، ونحو ذلك فإنه واجب في مدح
الملوك والخلفاء والعظماء ؛ لأنه من الأوصاف التي تخصهم ،
ويحسن موقع ذكرها عندهم .

وكذلك جمال الوجه وحسنه مما يجب المدح به ، فإن الوجه الجميل
يزيد في الهيبة ، ويتيمن به العرب ؛ لأنه يدل على الخصال المحمودة ، كما

(١) الصناعتين ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

أن قبح الوجه والدمامة يسقط الهيبة ، ويدل على الخصال المذمومة ،
وذلك مما تكرهه العرب وتتشاءم به ؛ لأن أول ما تلقاه من الإنسان
وتعابنه وجهه .

وقد غلط بعض المتأخرين في هذا الباب - ممن ألف في نقد الشعر
كتاباً- غلطاً فاحشاً ، فذكر أن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح
والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ، وخطأ كل من
يمدح بهذا أو يذم بذاك ، فعدل بهذا المعنى عن مذاهب الأمم عريبها
وعجميها ، وأسقط أكثر مدح العرب وهجائها"^(١).

وكان على أبي هلال أن ينظر بعين الاعتبار إلى نقد الآمدي^(٢)،
ولكنه شايع قدامة ، وتابعه على رأيه ، مما جعل الدكتور مندور ينتحي
باللائمة على أبي هلال ؛ لإيثاره رأي قدامة على ذوق الآمدي ، ونظراته
الشعرية الجميلة^(٣).

(١) الموازنة للآمدي ٢ / ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) تأثر أبو هلال في مواضع متعددة من كتابه (الصناعتين) بآراء الآمدي، مما يوحي بأنه اطلع على موازنته، وأفاد منها. انظر على سبيل المثال: الصناعتين، ص ٨٧-٨٩ مقابلة بالموازنة ١ / ٣٩ - ٤١، والصناعتين، ص ١٨١ مقابلة بالموازنة ١ / ٤٥، ٢٣٣، وراجع: النقد المنهجي عند العرب، ص ٣٢١، ٣٢٢.

(٣) انظر: النقد المنهجي عند العرب، د. مندور، ص ٣٢٤.

المديح الجيد في منظور أبي هلال:

مع أن أبي هلال لم يتعرض صراحة لنعته المديح الجيد - اكتفاءً بما ذكره من عيوب المديح ، وبما عرضه من أمثلة المديح الجيد - فإننا نفهم من كلامه أن الجيد من المديح - في نظره - هو ما كان بالفضائل النفسية؛ كالعقل ، والعفة ، والعدل ، والشجاعة ، كما أنه لا ينبغي - إضافة إلى ذلك - أن يخلو المديح من مناقب لأباء الممدوح ، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه .

* * *

عيوب الهجاء والمختار منه

يقول أبو هلال: "والهجاء - أيضًا - إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس ، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها لم يكن مختارًا.

والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم ، والبخل ، والشره ، وما أشبه ذلك. وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه ، وصغر الحجم ، وضئول الجسم ، يدل على ذلك قول القائل:

فقلت لها: ليس الشحوب على الفتى بعار ولا خير الرجال سمينها
وقول الآخر:

رأوه فازدروه وهو خرق وينفع أهله الرجل القبيح^(١)
وذكر السموءل أن قلة العدد ليست بعيب ، فقال:

تعرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليل
ومن الهجاء الجيد قول بعضهم:
اللؤم أكرم من وبر ووالده واللؤم أكرم من وبر وما ولدا
قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

(١) ازدروه : انتقصوه وعابوه ، الخرق (بكسر الخاء وسكون الراء) : الفتى الكريم الخليقة ، والظريف في

ساحة ونجدة .

وقول أعشى باهلة:

بنو تميم قرارة كل لؤم كذاك لكل سائلة قرار^(١)
ومن خبيث الهجاء قول الآخر:

إن يغدروا أو يجبنوا أو يخلوا لا يجفلوا^(٢)
يغدوا عليك مرجلياً — من كأنهم لم يفعلوا^(٣)

وقول الآخر:

لو اطلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا
وقول مرة بن عدي الفقعي:

وإذا تسرك من تميم خصلة فلما يسوءك من تميم أكثر

ومن المبالغة في الهجاء قول ابن الرومي:

يقتري عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

(١) سائلة: اسم فاعل من سال الشيء يسيل سيلاً إذا جرى ، والقرار: المستقر. والمراد أن اللؤم يجري نحوهم فيستقر في ديارهم .

(٢) يجفلوا: الجفول: سرعة الذهاب في الأرض ، والمراد - هنا - أنهم لا يستترون خجلاً أو استحياء. ويروى: لا يجفلوا؛ أي: لا يكثرثوا.

(٣) مرجلين: من الترجيل ، وهو تسريح الشعر وتسويته وتزيينه ، والمراد : أنهم يظهرون زيتهم غير مبالغين بما كان منهم .

والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى ، وإنما أخذه مما
حكاه أبو عثمان: أن بعضهم قبر إحدى عينيه ، وقال : إن النظر بهما في
زمان واحد من الإسراف^(١).

التعليق:

كما تأثر أبو هلال بوجهة قدامة في المديح تأثر - أيضاً - بوجهته في
الهجاء ، على أن رؤية كل منهما للهجاء تأتي امتداداً لرؤيته للمديح ،
فقدامة يرى: "أنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية
كان ذلك عيباً في الهجاء"^(٢).

وأبو هلال يرى أن الهجاء إذا لم يكن بسلب الفضائل النفسية لم
يكن مختاراً ، فما يعده قدامة معيباً يعده أبو هلال من غير المختار.

ثم جاء ابن رشيق فرجح وجهة أبي هلال على وجهة قدامة ؛ إذ
يقول: "وأجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما
تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان في الخلقة الجسمية من
المعائب، فالهجاء به دون ما تقدم ، وقدامة لا يراه هجواً البتة ، وكذلك
ما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد لا يراه عيباً ، ولا
يُعد الهجو به صواباً ، والناس - إلا من لا يعد قلة - على خلاف رأيه ،

(١) الصناعتين ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) نقد الشعر ، ص ١٨٧ .

وكذلك يوجد في الطباع - وقد جاء - ما أكد ذلك من أحكام
الشريعة"^(١).

وأرى أن الهجاء الجيد لا ينحصر في سلب الفضائل النفسية ، وأن
الشاعر قد يقصد بذكر العيوب الخلقية إلى السخرية من المهجو أو التهكم
به؛ فيكون هجاءه ألدع ، ووقعه أشدّ ، وجرحه أعمق ، يقول القاضي
الجرجاني: "فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ... فأما
القذف والإفحاش فسيباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن
وتصحيح النظم"^(٢).

ومن يطالع أدبنا العربي يجد أن شعراء الهجاء لم يقصروا هجاءهم
على سلب فضائل النفس ، بل تعدّوه إلى ميدان آخر ، وهو رسم المهجو
نفسه في صورة ساخرة، تقربه من الدمامة ، وتشير الضحك لتخيله ،
فألحوا على ما فيه من عيب فضخّموه ، وما فيه من نقص فعظّموا أمره ،
وأطلقوا لريشتهم العنان في رسم صور متعددة للقصر، ودمامة الوجه ،
وطول الأنف ، وكبر المنخرين، وجحوظ العينين ، وجعلوا ذلك ونحوه
مدار شعرهم في الهجاء والتهكم بالمهجو ، فأثاروا العيب الخلقى ،
وأرادوه ظاهراً بارزاً يثير الزراية ، ويبعث على السخرية من غير شفقة

(١) العمدة لابن رشيق ٢ / ١٧٤ .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٢٤ .

ولا رحمة^(١)، على نحو ما كان من جرير بن عطية بن الخطفي وقد رأى
الشاعر الأسود الحيقطان^(٢) يوم عيد يلبس قميصًا أبيض ، فتهكم به
قائلًا :

كأنه لما بدا للناس أيرحمار لف في قرطاس
وكان لهذا البيت العابث أثره المؤلم في نفس الحيقطان ، فيقال : إنه حزن
حزنًا شديدًا لما أصابه من هذا البيت ، فدخل منزله ، ثم أنشأ قصيدة رادعة
يثأر فيها لنفسه ولبني جلدته ، ويرد على جرير ردًا لاذعًا يتجاوز جريرًا
وقومه إلى مكة وأهلها^(٣).

وقد ذكر أبو هلال نفسه في كتابه (ديوان المعاني) نماذج متعددة
للهجاء بالعيوب الخلقية كالقصر، والدمامة ، والقبح ، والسواد^(٤)،
يقول : ومن أقبح ما جاء في قبح الأسنان قول جرير :

إذا ضحكت شبهت أنيابها العلى خنافس سودًا في صراة قليب

(١) انظر: الهجاء للدكتور: محمد سامي الدهان ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، سلسلة فنون الأدب العربي ، ط: دار
المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٨٢ م.

(٢) لم تفصح المصادر عن شيء من أخبار الحيقطان سوى أنه كان عبدًا أسود شاعرًا ، وأنه كان
خطيبًا لا يُبارى ، وكان ينزع نزعة شعرية. (انظر: البيان والتبيين للجاحظ ١/١٣ ، وظهر
الإسلام للأستاذ أحمد أمين ١/٧٢ ، ط: النهضة المصرية سنة ١٩٦٢ م ، والشعراء السود ،
د/ عبده بدوي ، ص ١٥٠ ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٨ م).

(٣) انظر: رسائل الجاحظ ١/١٨٣ ، ١٨٤ ، تحقيق : أ/ عبد السلام هارون ، نشر مكتبة الخانجي .

(٤) انظر: ديوان المعاني لأبي هلال ١/ ٢٠٥ - ٢١٦ .

وإنما خص الأنياب العلى دون السفلى ؛ لأنها تبدو في التبسم والتكلم ،
وعند التثاؤب ، ... فشبه أسنانها بالحنافس ، وسعة فمها بالقلب ،
والصراة : الماء الفاسد ، فشبه به فساد نكهتها"^(١).

* * *

(١) ديوان المعاني لأبي هلال ٢٠٦/١ .

نعت الوصف

يقول أبو هلال: " ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينك، وذلك مثل قول الشماخ في نبالة:

خلت غير آثار الأراجيلِ ترمي تقعقع في الآباطِ منها وفاضها^(١)
فهذا البيت يصور لك هرولة الرجالة ووافاضها في آباطها تقعقع.

وقول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رأى قومي كأنّ رجاهم نخيلٌ أتاها عاضد فأمالها^(٢)
فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصروعين^(٣).

التعليق:

فكرة أبي هلال في الوصف هي فكرة قدامة الذي يرى أن الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ، وأن أفضل الشعراء من أتى في شعره بأكثر المعاني التي يكون الموصوف مركباً منها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحسن بنعته^(٤).

(١) الأراجيل: الرجال الذين يمشون على أرجلهم ، خلاف الفرسان. الوفاض: جمع وفضة ، وهي جعبة السهام والنبال.

(٢) عاضد: قاطع ، يقال: عضد الشجر يعضده إذا قطعه بالمعضد .

(٣) الصناعتين ، ص ١٤٥ .

(٤) نقد الشعر لقدامة ، ص ١٣٠ .

وإذا كان أجود الوصف - في منظور قدامة وأبي هلال - ما استوعب أكثر معاني الموصوف ، حتى يصوره لك فكأنك تراه نصب عينك - فإن الوصف إذا قصر عن ذلك كان معيباً على رأي قدامة^(١)، غير مُحْتَار على ما يُفهم من كلام أبي هلال^(٢).

وأرى أن ما يتطلبه قدامة وأبو هلال من ضرورة أن ينقل الشاعر صورة الموصوف كما هي عليه دون زيادة أو نقصان - إنما هو تشريع تحكيمي^(٣) فيه حَجْرٌ على خيال الشاعر وإبداعه وملكاته التصويرية ، أن فيه قناعة بالتصوير الحسي ، مع أن مجال التصوير يتسع لنقل وجدان المنشئ والإيحاء بإشعاعه الانفعالي إلى المتذوق ، ولا ينبغي أن يُكتفى في الوصف بتصوير المرئي والألوان والأشكال المحسوسة ، بل يجب أن يصحب ذلك تصوير الرؤى وتهويمات الخيال ، وبقدر انطباعها في نفس المنشئ وعمقه وسعته يُرَجَى أن تطبع في نفس المتذوق بذات القدر والسعة ، تسليماً بنظرية التعاطف الوجداني ، وعدوى الانفعالات والمشاعر^(٤).

* * *

(١) انظر: نقد الشعر، ص ١٣٠، ص ١٩٠.

(٢) انظر: الصناعتين، ص ١٤٥.

(٣) انظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، ص ١٨٤.

(٤) المرجع السابق، ص ١٨٤.

نعت النسب

يقول أبو هلال: "وينبغي أن يكون التشبيب دالاً على الصبابة ، وإفراط الوجد ، والتهالك في الصبوة ، ويكون برياً من دلائل الخشونة والجلادة ، وأمارات الإباء والعزة .

ومن أمثلة ذلك قول أبي الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك ، فليمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً ما من يهون عليك ممن أكرم
فهذا غاية التهالك في الحب ، ونهاية الطاعة للمحبوب .

ويستجد التشبيب - أيضاً - إذا تضمن ذكر الشوق ، والتذكر لمعاهد الأحبة ، بهبوب الرياح ، ولمع البروق ، وما يجري مجراها من ذكر الديار والآثار .

فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدى:

فلم تدع الأرياح والقطر والبلى من الدار إلا ما يشف ويشغف
وكذا ينبغي أن يكون التشبيب دالاً على الحنين ، والتحسر ،
وشدة الأسف ، كقوله:

وليست عشيّات الحمى برواجع إليك ولكن خلّ عينيك تدمعاً

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا
وينبغي أن يُظهرَ الناسُ الرغبة في الحب ، وألا يُظهرَ التبرم به ،
كأبي صخر حين يقول:
فيا حبها زدني جوى كل ليلةٍ ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ
وقول الآخر:

تشكى المحبون الصبابة ليتني تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لنفسي لذة الحب كلها ولم يلقها قبلي محب ولا بعدي
وينبغي أن يكون في النسب دليل التدله والتحير؛ كقول الحكم
الحضري:

تساهم ثوباها ففي الدرع رداةً وفي المرط لفاوان ردفها عبلاً^(١)
فوالله ما أدري أزيدت ملاحاةً وحسناً على النسوان أم ليس لي عقلُ
وقيل لبعضهم: ما بلغ من حبك لفلانة؟ فقال: إني أرى الشمس
على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها^(٢).

التعليق:

نسجل لأبي هلال ما تطلبه في النسب من أنه ينبغي أن يكون دالاً
على الصبابة ، وإفراط الوجد ، والتهالك في الصبوة ، وأن يكون بريئاً

(١) الدرع: القميص. رداة: ناعمة. المرط: الكساء من خز أو صوف يؤتزر به ، وتلتفع به المرأة ،
وأراد به هنا الإزار. لفاوان : مثنى لفاء ، وهي الكثيرة لحم الفخذين. العبل: الضخم من كل
شيء.

(٢) الصناعتين ، ص ١٤٥ - ١٤٩ .

من دلائل الخشونة والجلادة ، وأمارات الإباء والعزة ، فقد استجد
النقاد ذلك في النسيب ، وعابوا ما يظهره بعض الشعراء من تجلُّد
وإباء^(١).

كقول الأحوص:

فإن تصلي أصلك وإن تبيني بهجرٍ بعد وَصْلِكَ لا أبالي
وإني للمودة ذو حفاظ أو اصل من يهش إلى وصالي
وأقطع حبل ذي ملق كذوب سريع في الخطوب إلى انتقال
وذكروا أن كثيرًا قال له^(٢) : لو كنت من فحول الشعراء لباليت ،
هلاً قلت كما قال هذا الأسود – وضرب بيده على جنب نصيب مولى بني
مروان –:

بزينب ألم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب
وكان جرير يقول : "وددت أن هذا البيت من شعر هذا العبد –
يعني نصيباً – كان لي بكذا وكذا بيتاً من شعري"^(٣).

(١) انظر: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ، ص ٢١٧ ، والأُمالي لأبي علي القالي ١ /

٧١ ، واتجاهات النقد الأدبي العربي ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ص ٨٣ ، ١٥٩ ، وفي محيط

النقد الأدبي ، أ.د/ إبراهيم علي أبو الخشب ، ص ٣٩ .

(٢) الموشح للمرزباني ، ص ٢١٧ .

(٣) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ١ / ١٠٥ ، ١٠٦ ، نشر مكتبة المعارف ، بيروت .

وكذلك نسجل لأبي هلال ما تطلبه من أن يُظهر المناسب الرغبة في
الحب ، وألا يُظهر التبرم به ، كقول أبي صخر:

فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعداك الحشر

فقد أثنى النقاد على الغزل الذي يسير على هذا الدرب^(١)، ونقل ابن
رشيقي عن الحاتمي أنه قال: أغزل بيتِ قالتَه العرب قول أبي صخر: فيا حبها
زدني جوى...^(٢).

ومع ذلك فإن ما قرره أبو هلال في حديثه عن النسيب لا يخرج - في
جملته - عما قرره قدامة في قوله: "يجب أن يكون النسيب الذي يتم به
الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه
الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقّة أكثر
مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه الإباء
والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق
الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض.

وقد يدخل في النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابّة ،

(١) انظر: الموشح للمرزياني ، ص ٢١٤ ، ٢١٧ ، غير أنه في ص ٢١٤ نسب بيت أبي صخر لكثير عزة
خطأ ، وقد نبه على ذلك محقق الكتاب ، وانظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي ، أ.د/ محمد السعدي
فرهود ، ص ١٦٩ .

(٢) العمدة ٢ / ١٢١ .

والبروق اللامعة ، والحمام الهائفة ، والخيالات الطائفة ، وآثار الديار
العافية ، وأشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون
فيه أدلة على عظيم الحسرة، وممرض^(١) الأسف والمنازعة^(٢).

* * *

(١) ممرض الأسف : شدته.

(٢) نقد الشعر ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

الرتاء والفخر

يرى أبو هلال أن الرتاء والفخر داخلان في المديح ، فيقول: "ولما كانت أغراض الشعراء كثيرة ، ومعانيهم متشعبة جمّة لا يبلغها الإحصاء - كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالاً ، وأطول مدارس له ، وهو المدح ، والهجاء ، والوصف ، والنسيب ، والمراثي ، والفخر.

وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما ، ثم ذكرت الآن الوصف والنسيب ، وتركت المراثي والفخر ، لأنهما داخلان في المديح ، وذلك أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة ، والعفاف ، والحلم ، والعلم ، والحسب ، وما يجري مجرى ذلك ، والمرثية مديح الميت ، والفرق بينها وبين المديح أن تقول : كان كذا وكذا ، وتقول في المديح : هو كذا وكذا ، فينبغي أن تتوخى في المرثية ما تتوخى في المديح إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : مات الجود ، وهلك الشجاعة ، ولا تقول : كان فلان جواداً وشجاعاً ، فإن ذلك بارد غير مستحسن.

وما كان الميت يكده في حياته فينبغي ألا يذكر أنه يبكي عليه ، مثل : الخيل والإبل وما يجري مجراهما ، وإنما نذكر اغتباطها بموته ، وقد أحسنت الخنساء حيث تقول :

فقد فقدتك طليقة واستراحت فليت الخيل فارسها يراها

بل يوصف بالبكاء عليه من كان يُحسِن إليه في حياته ، كما قال
الغنوي:

ليبكك شيخ لم يجد من يعينه وطاوي الحشا نائي المزار غريب^(١).
التعليق:

(أ) اقتفى أبو هلال أثر قدامة في الرثاء كما اقتفى أثره في سائر
الأغراض التي تقدمت ، إذ يرى قدامة أنه "ليس بين المرثية
والمدحة فصل ، إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك : مثل :
كان ، وتولّى ، وقضى نحبه ، وما أشبه ذلك"^(٢).

ثم جاء ابن رشيق فاقتفى أثرهما ، فقال : "وليس بين الرثاء
والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت ،
مثل : كان ، أو عدمنا به كيت وكيت ، وما يشاكل هذا ؛ ليعلم أنه
ميت"^(٣).

وما ذهب إليه النقاد الثلاثة - قدامة ، وأبو هلال ، وابن رشيق -
لا يتفق وحقائق الشعر العربي ، فلكل فنٍّ من فنونه ميزاته وصفاته
التي يتميز بها من غيره ، مما يجعلنا نحكم بأن فن الرثاء لا يتفق مع فن
المديح ، وإن اشتركا في ظاهر الأمر حين تأبين الميت - أحد روافد

(١) الصناعتين ، ص ١٤٨ .

(٢) نقد الشعر ، ص ١١٨ .

(٣) العمدة ٢ / ١٤٧ .

الرثاء^(١) - إذ يُعدُّ الشاعر فضائل المرثي حين التأبين كما يُعدُّ مناقب الممدوح حين المديح ، ولكن شتَّان الفارق بين التجريبتين ، والاختلاف بين الأمرين ، لأن التجربة الوجدانية المسيطرة على النفس المادحة غير التجربة الوجدانية المسيطرة على النفس الرائية^(٢).

فالرثاء لا يقف عند ذكر الفضائل وتعدد المناقب فحسب ، ولو اقتصر على ذلك لكان رثاءً باردًا ، لا يحرك عاطفة ، ولا يثير انفعالا، إذ ينبغي أن يتخطى الشاعر هذا كله إلى ما هو أبعد منه وأعمق تأثيرًا ، فإن كان الميت قريبًا أو صديقًا ذكر الرائي لوعته وأساه ، وأثر الفجعية في نفسه ، وإن كان الميت ملكًا ، أو خليفة ، أو أميرًا ، أو قائدًا ، ذكر أثره في دنيا الناس ومسرح الأحداث ، وأن موته يشكل خطبًا عامًا ، وفاجعة عظيمة ، ونحو ذلك مما يدل على فداحة الخطب وعظم المصاب .

(ب) ذكر أبو هلال - مقتنفياً أثر قدامة^(٣) - أن ما كان الميت يكده في حياته كالخيل والإبل وما جرى مجراهما لا يوصف بالبكاء على

(١) روافد الرثاء ثلاثة ، هي: الندب ، والتأبين ، والعزاء.

(٢) انظر: ملاحظات على كتاب العمدة لابن رشيق ، د/ يحيى محمد أحمد عيد ، بحث بملحق مجلة اللغة العربية بالمنصورة ، العدد التاسع ، ص ٢١٨ من ملحق المجلة ، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

(٣) انظر: نقد الشعر، ص ١١٨، ١١٩ .

الميت ، بل يوصف بالغبطة لموته ، إنما يوصف بالبكاء عليه من كان
يُحسن إليه في حياته كالعفاة والسائلين ونحو ذلك .

ويبدو " أن أبا هلال رصد الرثاء المروي عن السلف فبنى عليه
نظرته هذه للبكاء ، وهي نظرة اعتبارية وليست معياراً ثابتاً ،
ومقالة الخنساء ليست من الأمور المحتومة ، فإنه كثيراً ما نشهد
مسحة الحزن على الحيوان حين يفقد صاحبه ، ولقد يغتال الحزن
هذا الحيوان ، فضلاً عن انتقاله إلى ملك الورثة ، فقيم اغتباطه
بموت من مات" (١).

(ج) ذهب أبو هلال إلى أن الفخر مديح المرء نفسه بالطهارة ، والعفاف ،
والحلم ، والعلم ، والحسب ، وما يجري مجرى ذلك ، وتبعه ابن
رشيق فقال: "والافتخار هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به
نفسه وقومه ، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما
قبح فيه قبح في الافتخار" (٢).

غير أنه لا يخفى أن المديح بناء والفخر بناء آخر ، وأن التجربة
الشعرية في المديح غيرها في الفخر ، وقد سبق القول بأن لكل فن

(١) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ، أد/ محمد السعدي فرهود ، ص ١٨٣ .

(٢) العمدة ٢/ ١٤٣ .

من فنون الشعر ميزاته وخصائصه التي تميزه من غيره ، وليس كل
بانٍ بضرب بانياً بغيره كما قال ابن قتيبة^(١).

* * *

(١) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٩٤، تحقيق الشيخ : أحمد محمد شاكر ، ط : دار المعارف
بمصر ، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .

٣- الاتجاه البلاغي في النقد الأدبي القديم

كانت العرب تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبَدَه فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القصيد^(١).

وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن تجد فيها بيت بديع ، فإذا وقع ذلك في قصائدهم ، واتفق لهم في البيت بعد البيت جاء موافقا للطبع على غير تعمد وقصد ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا كان نادراً^(٢). فلما أفضى الأمر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات - أبيات البديع - من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللفظ - تكلفوا الاحتذاء عليها ، فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط^(٣).

وأصبح البديع صنعة لها روادها من أمثال : بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، والعتابي ، ومنصور النمري ، وأبي نواس ، وأبي تمام ، وابن المعتز ، وكان الواحد من هؤلاء يقصد إلى البديع ، ويكثر منه في شعره ، لكنهم لم

(١) الوساطة ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر: البديع لابن المعتز ، ص ١ ، والوساطة ، ص ٣٤ .

(٣) الوساطة ، ص ٣٤ .

يكونوا سواء في تلك الصنعة من حيث الإقلال والإكثار ، والسهولة والتوعر، والطابع والاتجاه^(١).

وأدى هيام بعض الشعراء بهذه الألوان وإفراطهم في تناولها إلى طغيان الاهتمام باللفظ على الاهتمام بجانب المعنى ، كما أدى ببعضهم إلى عدم الاكتراث بجزالة الألفاظ واستقامتها إثارةً للمحسنات البديعية ، مما حدا بكثير من علماء اللغة والأدب إلى أن ينتصروا للقديم ويتعصبوا له ، وأن يقفوا في وجه كل جديد موقفاً متشدداً مقللين من شأن ما يأتي به المحدثون ، منكرين عليهم إكثارهم من ألوان البديع وكلفهم بها وإفراطهم فيها.

وإلى جانب هذه الطائفة التي تعصبت للقديم كانت هناك طائفة أخرى من الشعراء والنقاد تتعصب للمحدثين ، وتنتصر للبديع ، وتعد الإكثار منه في الشعر تفنناً في ضروب القول ، ودليلاً على شاعرية الشاعر^(٢).

ابن المعتز:

كان الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز (م ٢٩٦هـ) أحد أنصار المدرسة البديعية ، فألف " كتاب البديع " ، ليعلم الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من ألوان البديع ، و" أن بشاراً ، ومسلماً ،

(١) الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي ، أ.د. فوزي السيد عبد ربه عيد ، ص ٢١ ، مطبعة

الحسين الإسلامية ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

وأبا نواس ، ومن تقييلهم^(١) وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه
كثُر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، فأعرب عنه
ودل عليه .

ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه ،
وتفرع فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك
عُقبى الإفراط وثمره الإسراف^(٢) .

ويُعد هذا الكتاب أول مؤلف يتجه بالنقد الأدبي صوب البلاغة ،
ويذهب بعض الكتاب إلى القول بأنه أول كتاب في البلاغة العربية
بالمعنى الصحيح ، حيث لم يجاوز في موضوعاته وفنونه دائرة البحث
البلاغي^(٣) .

وقد جمع ابن المعتز في كتابه ثمانية عشر لوئاً ، أطلق على خمسة منها اسم
البديع ، وهي الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على
الصدور ، والمذهب الكلامي ، ثم قرر أنه اقتصر على هذه الفنون الخمسة
اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق في المعرفة ، فمن أحب أن

(١) تقييلهم: أشبههم وسلك طريقهم ، يقال: تقييل الولد أباه. إذا نزع إليه في الشبه والعمل.

(٢) البديع لابن المعتز ، ص ١ .

(٣) انظر: البيان العربي ، د/ بدوي طبانة ، ص ١٢٧ ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط: ٢ ، والفنون

البديعية في دائرة البحث البلاغي ، ص ٢٤ .

يقتدي به ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعّل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً على البديع فله اختياره^(١).

أما الثلاثة عشر فنأ الباقيّة فقد أطلق عليها ابن المعتز محاسن الكلام ، وهي : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيّد المدح بما يشبه الدم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجّد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعانات الشاعر نفسه في القوافي ، وحسن الابتداء^(٢).

قدامة بن جعفر :

جمع قدامة بن جعفر (م ٣٣٧هـ) في كتابه نقد الشعر عشرين لوناً من ألوان البديع ، وقد توارّد مع ابن المعتز على سبعة منها ، وانفرد بثلاثة عشر لوناً ، فتكامل لهما ثلاثون نوعاً^(٣).

ومن الألوان التي ذكرها قدامة :

١- صحة التقسيم :

وهي أن يتدئ الشاعر فيضع أقساماً فيستوفيها ولا يغادر قسمًا منها ، كقول

نصيب :

(١) انظر: البديع لابن المعتز ، ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٨ - ٧٥ .

(٣) الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي ، ص ٢٥ .

فقال فريق القوم: لا، وفريقهم نعم، وفريق قال: - ويحك - لا أدري

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام^(١).

٢- التتميم:

وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئاً إلا أتى به ، مثل قول نافع بن خليفة

الغنوي^(٢):

رجال إذا لم يقبل الحق منهم ويعطوه عاذوا بالسيوف القواطع
فما تمت جودة المعنى إلا بقوله "يعطوه" - بالبناء للمجهول - وإلا
لكان المعنى منقوص الصحة^(٣).

وكقول طرفة^(٤):

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي^(٥)
فقوله "غير مفسدها" إتمام لجودة ما قاله ، لأنه لو لم يقل غير
مفسدها لعيب كما عيب ذو الرمة في قوله :

(١) نقد الشعر لقدامية بن جعفر، ص ١٣٩، تحقيق: أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجة .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٥) الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي ، والديمة : المطر الدائم. تهمي: تسيل ، وقوله : غير مفسدها تتميم واحتراس للديار من الهدم .

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر
عابوه في هذا القول، لأن فيه إفساداً للدار التي دعا لها ، وهو أن تغرق
بكثرة المطر^(١).

فكان هذا النهج الذي نهجه قدامة في كتاب نقد الشعر خطوة جريئة
لتدوين البلاغة العربية وأصول النقد الأدبي^(٢).

ويعدّ هذا الكتاب قاعدة للدراسات البلاغية التي جاءت بعده ، والتي
أصّلت الاهتمام بالشكل الأدبي باعتباره مظهرًا للمضمون^(٣).

ثم جاء أبو هلال العسكري (م ٣٩٥هـ) فألّف كتاب الصناعتين الذي
دفع بالنقد الأدبي صوب البلاغة دفعة قوية ، بحيث صار الشأن للعناية بتأليف
الكلام وتفنين العبارة على ما تقتضيه الصناعة البلاغية ، التي أتى أبو هلال
بمثلها من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام العرب - منظومه
ومثوره - في القديم والحديث إلى عهده^(٤).

وكان أبو هلال واضحًا في إبراز الهدف الذي أرادته ، فقد قرر في مقدمة هذا

(١) نقد الشعر لقدامة ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، وقد اعتذر بعضهم عن ذي الرمة بأنه قدم الدعاء لها
بالسلامة في قوله: "اسلمي".

(٢) انظر: تقديم أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب نقد الشعر ، ص ٥٨.

(٣) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ، د/ محمد زغلول سلام ، ص ٢٢٣ ، منشأة
المعارف بالإسكندرية .

(٤) نصوص نقدية ، ص ١٤٨ .

الكتاب أن أحق العلوم بالتعلم أولاها بالتحفظ بعد معرفة الله جل ثناؤه : علم
البلاغة ، الذي يعرف به إعجاز كتاب الله تعالى^(١).

ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني (م ٤٧١ هـ) فارتكز في نقده الأدبي
على الدقائق البلاغية ارتكازاً كبيراً ، وذهبت شهرته بين البلاغيين على أنه رجل
البلاغة وقطبها ، بل عدّه كثير من الكتاب والباحثين في ميدان البلاغة واضع هذا
العلم ومؤسسه^(٢).

وامتزج النقد بالبلاغة عند بعض الكتاب ، فصاروا لا يفصلون بينهما ،
ومن هذا القبيل كتاب البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ، ففي المقدمة يقول
أسامة : " هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة
في نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم فضيلة الابتداع ، ولي فضيلة
الاتباع"^(٣).

ومن يطالع الموضوعات التي تناولها هذا الكتاب يجد أنها – في جملتها
– تندرج تحت علوم البلاغة ، ومعظمها داخل في عداد الفنون البديعة ، كما
أن أكثر هذه الموضوعات قد عرض عرضاً بلاغياً خالصاً ، ومن ذلك على
سبيل المثال :

(١) الصنائع ، ص ٩ .

(٢) انظر : المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٣٤٥ ، وتقديم أ.د/ محمد عبد المنعم
خفاجي لكتاب أسرار البلاغة ، ص ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٣) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ص ٨ ، تحقيق : د/ أحمد أحمد بدوي ، طبع مصطفى الحلبي ،
١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

١ - باب طبقات التطبيق^(١).

وفيه يقول: اعلم أن التطبيق هو أن تكون الكلمة ضد الأخرى ، كما قال الله تعالى: { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا }^(٢).
وقوله تعالى: { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ }^(٣).
وأخفى تطبيق في القرآن: { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا }^(٤).
وقال الحسن البصري في دعائه: " اللهم إن تبليني بنعمة فأشكر،
خير من أن تبليني بنقمة فأصبر ".
وللفرزدي مما يستحسنه المتقدمون:

والشيب ينهض في الشباب كأنه
ليل يصيح بحافتيه نهار

وقال أبو تمام^(٥):

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت وبيتلي الله بعض القوم بالنعمة
وقال المنصور: لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية.

(١) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ، ص ٣٦ .

(٢) سورة النجم: الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٣ .

(٤) سورة نوح: الآية ٢٥ .

(٥) شرح ديوان أبي تمام ١٥٦/٢ ، للخطيب التبريزي ، تحقيق: راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

٢- باب التذييل^(١):

وفيه يقول: اعلم أن التذييل هو: أن تأتي في الكلام جملة تحقق ما قبلها، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ} ^(٢)، ثم حقق الكلام بقوله: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} ^(٣).
ومنه قول النابغة^(٤):

ولست بمستبق أخوا لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب

٣- باب الاعتراض^(٥):

وفيه يقول: اعلم أن الاعتراض هو أن تذكر في البيت جملة معترضة لا تكون زائدة ، بل يكون فيها فائدة ، مثل قول الشاعر^(٦):

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

* * *

(١) ديوان النابغة الذبياني ، ص ٢٠ ، تحقيق : حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، ط: ٢ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٢) التوبة: الآية ١١١ .

(٣) التوبة: الآية ١١١ .

(٤) البديع في نقد الشعر، ص ١٣٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٦) نسبه البعض إلى عوف بن محمّ الشيباني. (انظر: الإعجاز والإيجاز للشعالبي ، ص ١٧٢٠).

أهم المصادر والمراجع

- ١- اتجاهات النقد الأدبي العربي، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ط. دار
الطباعة المحمدية ١٤٠٠-١٩٨٠م.
- ٢- الأدب الإسلامي في عصره الأول ، أ.د/ صلاح الدين محمد عبد
التواب ، دار الطباعة المحمدية ، ١٩٨١م.
- ٣- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، تحقيق أ.د/ محمد عبد المنعم
خفاجي ، نشر مكتبة القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٤- الأشباه والنظائر للسيوطي : الفن السابع فن المناظرات
والمجالسات ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٥- أصول النقد الأدبي ، أ/ أحمد الشايب ، ط. النهضة المصرية
١٩٧٣م.
- ٦- الإعجاز والإيجاز للشعالبي ، مكتبة القرآن ، القاهرة .
- ٧- الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، ط مطبعة التقدم بمصر .
- ٨- الأمالي ، لأبي علي القالي ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
١٩٧٥م.
- ٩- بدائع البدائ لعللي بن ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي ، طبعة
مصر ، ١٨٦١م.

- ١٠- البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ، تحقيق: د/ أحمد أحمد بدوي ، طبع مصطفى الحلبي ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- ١١- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون ، ط دار الجليل ، بيروت.
- ١٢- البيان العربي ، د/ بدوي طبانة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط: ٢.
- ١٣- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، ط: دار المعارف ، ط: رابعة ، ١٩٧٧م.
- ١٤- تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ، د/ محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- ١٥- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- ١٦- جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد القرشي، ط: دار صادر، بيروت.
- ١٧- الحيوان للجاحظ، تحقيق : الأستاذ : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- ١٨- خزانة الأدب للبغدادي ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٨هـ - ١٩٧٧م.
- ١٩- دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر ، تحقيق الأستاذ / محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجي ، ١٩٨٤م.

- ٢٠- دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخري ، تحقيق: د/ عبد الفتاح محمد الحلو، ط: مطبعة المدني بالقاهرة ، نشر دار الفكر العربي.
- ٢١- ديوان المعاني ، لأبي هلال العسكري ، ط: دار الجليل ، بيروت.
- ٢٢- رسائل الجاحظ ، تحقيق: أ/ عبد السلام هارون ، نشر مكتبة الخانجي.
- ٢٣- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزنجشري ، مؤسسة الأعلمي، بيروت ، ط: ١، ١٤١٢هـ.
- ٢٤- روح المعاني ، للألوسي ، ط: المركز الإسلامي ، نشر مكتبة دار التراث .
- ٢٥- شرح شعر زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب ، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة ، نشر دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٢٦- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تقديم الشيخ : حسن تميم ، مراجعة: محمد عبد المنعم العريان ، ط دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٧م.
- ٢٧- الشعراء السود ، د/ عبده بدوي ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٨م.
- ٢٨- الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق : د/ مفيد قميحة ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٢٩- طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ،
ط:٣ ، دار المعارف .

٣٠- طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، تحقيق : محمود شاكر ، دار
المدني ، جدة .

٣١ طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين الداودي ، ط: دار
الكتب العلمية ، بيروت ، ط: أولى ، ١٠٤٣هـ - ١٩٨٣م

٣٢- العفو والاعتذار للرقام البصري ، حققه : عبد القدوس أبو
صالح ، دار البشير ، ط: ٣ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٣٣- العقد الفريد لابن عبد ربه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: ١ ،
١٤٠٤هـ ..

٣٤- العمدة لابن رشيق ، تحقيق الأستاذ/ محمد محيي الدين عبد
الحميد ، ط: دار الجيل ، بيروت .

٣٥- عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة .

٣٦- عيون الأخبار لابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
١٤١٨هـ .

٣٧- الفرج بعد الشدة للتنوخي ، تحقيق: عبود الشاجي ، دار صادر ،
بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

- ٣٨- الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي ، أ.د/ فوزي السيد عبد ربه ، ط : مطبعة الحسين الإسلامية.
- ٣٩- قضايا النقد الأدبي الحديث ، أ.د/ محمد السعدى فرهود زهران، ط: مطبعة زهران ، ١٩٦٨م.
- ٤٠- محاضرات في النقد الأدبي ، أ.د/ محمد عرفة المغربي، ط المؤلف.
- ٤١- معالم على طريق النقد القديم ، د/ رجاء عبد المنعم جبر ، نشر مكتبة الشباب بالقاهرة .
- ٤٢- معجم الأدباء لياقوت الحموي ، تحقيق: إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط: ١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ٤٣- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م
- ٤٤- المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين ، أ.د/ فوزي السيد عبد ربه عيد ، ط: دار المعارف ، ١٩٨٣م.
- ٤٥- الموازنة للآمدي ، تحقيق: السيد أحمد صقر ، ط: دار المعارف.
- ٤٦- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزباني ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، ط: دار الفكر.
- ٤٧- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للشيخ محمد الطنطاوي ، دار المعارف ، ط: ٢ ، ١٩٩٥م.

- ٤٨- نصوص نقدية ، أ.د/ محمد السعدي فرهود ، ط: دار الطباعة
المحمدية ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
- ٤٩- نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، تحقيق: أ.د/ محمد عبد المنعم
خفاجي ، ط: مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٠م .
- ٥٠- النقد المنهجي عند العرب ، أ.د/ محمد مندور ، ط: دار نهضة
مصر ، ١٩٦٩م .
- ٥١- الهجاء ، د/ محمد سامي الدهان ، سلسلة فنون الأدب العربي ،
ط: دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٨٢م .
- ٥٢- الوساطة للقاضي الجرجاني ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،
وعلي محمد البجاوي ، نشر المكتبة العصرية ، بيروت .

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	م
٥	مقدمة.	*
٩	تمهيد: مفهوم النقد الأدبي وعدة الناقد	.١
١٩	الفصل الأول : الجذور التراثية للنقد في العصر الجاهلي .	.٢
٤٥	الفصل الثاني: الجذور التراثية للنقد في عصر صدر الإسلام .	.٣
٧٣	الفصل الثالث : الجذور التراثية للنقد في العصر الأموي .	.٤
١٠٣	الفصل الرابع:	.٥
١٠٥	المبحث الأول: الجذور التراثية للنقد في العصر العباسي .	.٦
١١٩	المبحث الثاني: النقد المنهجي .	.٧
١٢٣	أ) الأمدي ومنهجه في كتاب الموازنة .	.٨
١٢٩	ب) القاضي الجرجاني ومنهجه في كتاب الوساطة .	.٩
١٣٩	الفصل الخامس: من قضايا النقد الأدبي القديم .	.١٠
١٣٩	١ - اللفظ والمعنى .	.١١

١٤٥	٢- خطأ المعاني وصوابها في ضوء كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري .	.١٢
١٧٨	٣- الاتجاه البلاغي في النقد الأدبي القديم .	.١٣
١٨٧	أهم المصادر والمراجع .	.١٤
١٩٥	فهرس الموضوعات .	.١٥

* * *